

چون کائنات

للكاتب العظيم

أنا تول فرانس

تقریب

عبد النعمان

الطبعة الأولى — يناير ١٩٣٢

حقوق الطبع محفوظة لل المؤلف

مطبعة عطايا بابا بالاسر

UNIVERSAL
LIBRARY

OU_191045

UNIVERSAL
LIBRARY

OUP—880—5-8-74—10,000.

OSMANIA UNIVERSITY LIBRARY

Call No.

۸۳۲

Accession No.

A 697

Author

ف. ب. ج.

فرانس، زنا تولد

Title

یلو کا ست

This book should be returned on or before the date last marked below.

چون کائنات

للكاتب العظيم

أنا تول فرانس

فريب

عبد النعمان

الطبعة الأولى — يناير ١٩٣٢

حقوق الطبع محفوظة لل المؤلف

مطبعة عطايا بابا لاس بوم

تقررة

أناتول فرانس^(١)

فى حى «كى ملاكى» بمدينه پارى، ولد أناتول فرانس فى السادس عشر من إبريل سنة ١٨٤٤. وأسمه الحقيقى جاك أناتول تيبو. واناتول ليس من ذؤابة الأشراف. فأبوه كان بائع كتب. وكانت مكتبته المملوءة بالكتب الأدبية والصور الفنية ملتقى كثير من الأدباء والشعراء فكان أناتول يجلس منصتاً لأقوالهم ومجادلاتهم يشغف زائد. وقد اشتغل ببيع الكتب فى دكان أبيه كما كان أميل زولا يبيعها فى بدء حياته عند «هاشيت». والتحق بجامعة ستانسيلاس بيارى وكان لا ينفك يدرس الفن وتاريخ الأدب. وينهل من معين «دارون» و«سينسر» و«تين» و«رينان» ويؤازر فى تحرير بعض المجلات مثل «صياد التراجم» و«الجريدة المقفاة» وفى الرابعة والعشرين من سنه حياته ألف رسالة عن «الفرد دى فينى»

وتردد أناطول على مجالس البارناسيين ، وتمشى مع آدابهم
وذوقهم الفنى . وأخذ يتجول فى القسم الواقع على ضفة السين
حيث يجذباعة الكتب التى يعشقها . وفى الثلاثين أخرج للناس
ديوان « القصائد المذهبة » فى سنة ١٨٧٣ ثم أتبعه بكتاب
« أعراس الكورتين » سنة ١٨٦٦

وأولع أناطول بفن القصص فأظهر للعالم قصته الأولى
« چوكاست » ووالى اصدار قصصه التى تجلت فيها قوة خياله
وروحه الناقدة الساخرة وأودعها ترجمته وروى حادثات نفسه
فى أعطاف كتبه . فهو قصاص ماهر ، وخبير فى علم النفس ،
ولا يوجد من عهد شاتوبريان رجل كان لكتاباتاته من التأثير
ما كان لتآليف فرانس . فأخرج بلطازار وخطيئة سيلفستر
بونار وكتاب صاحبي وتاييس ومطهى الملكة ييدوك ، وآراء
چيروم كوانياز ، والزنبقة الحمراء ، وزنبيل الصفصاف ، وحزيرة
البطريق ، وثورة الملائكة ، والحياة أيام الزهر ، وحديقة أيقوره ،
بيرسانت كلير ، ذردارة اللعب ، صدقة اللؤلؤ ، رغائب
جان سرفين ، بلتشصر ، المسيو برجرية فى باريز ، يار
نوذير ، التاريخ الهزلى ، الحجر الأبيض ، قصص جان

تورنبروش ، النساء السبع ، والآلهة عطاش .
وقد نشر مؤلفات بعض الكتاب الفرنسيين كراسين
وشاتوبريان ولافوتتين وكتب عن جان دارك كتابا ضخما .
ويقول مسيو مشيل كوردای أنه عثر على آثار خطية لهذا
الكاتب لم تنشر بعد منها كتاب ما وراء الطبيعة وفي ظل الوردة .
وقد عثر أيضاً على عناوين كتب وقصص كان في عزمه تأليفها
ولكنها لم تتم بعد وهاك أسماءها : الله . الطبيعة . الحرب .
المستقبل . العفة . الدير . الحب والموت . محاورات عن
الشيخوخة . علم الفلك .

ويقول كوردای أن أناتول كان عازما على وضع رواية
أخرى بعنوان سيكلوب ..

نعود إلى حياة هذا الفيلسوف فقد تولى تحرير القسم الأدبي
في جريدة الطان الفرنسية . وفي ديسمبر سنة ١٨٩٤ وقف
موقفا مشهوداً مع زميله « زولا » الأديب والصحافي الفرنسي
الكبير في حادثة « كابتن الفريد دريفس » حيث تحدى زولا
القضاء في مقالته « انى أتهم » وكان أن قبض عليه . ولكن
الحق الصراح ما لبث أن ظهر فأطلق سراحه . وظهرت للعالم

قوة أناتول وزولا في تقدير الحقائق وصراحتها
وظل مدة يعمل في مكتبة السنوات ثم انتخب عضوا في
الأكاديمية الفرنسية سنة ١٨٩٦ م كان فرديناند دولسبس ثم
أنعم عليه بوسام اللجيون دونور
وزار فرانس انجلترا في سنة ١٩١٣ ويقال أنها كانت زيارة
سياسية وفي سنة ١٩١٤ تطوع بنفسه للخدمة العسكرية .
وفي سنة ١٩٢١ نال أناتول جائزة نوبل في الآداب ووهبها
لمنكوبي المجاعات في روسيا وبينما هو يستقبل عيد ميلاده
الأول بعد الثمانين في ١٣ أكتوبر سنة ١٩٢٤ الساعة ٢٦ر١١
صباحا لفظ النفس الأخير بعد أن ظل يومين فاقداً لرشده .
وقد استوفى من العمر قسطا مديدا مجيدا . وخلف مجدا أثيلا .
وكان في أيامه الأخيرة كثير الحديث يؤم منزله جماعات
من الأدباء فيتحدث إليهم بفكاهته وأدبه المستملح . وقد حدث
المسيو سيم بائع الكتب ومن أكبر أصدقائه المقربين قال :
إذا ما استيقظ في الصباح هرع إلى ملابسه فيتناول أقرب
رداء إليه فيرتديه وهكذا حتى ينتهي وقد يعثر في البدء على
چاكتته قبل قميصه فيرتديها تحت القميص وفي النهاية رداء من

الصوف فاذا مأخذك العجب من ذلك أجابك مشدوها من
عجبك : « وما وجه العجب . ألم أرتديها جميعا كما هو الواجب ؟
أنتي أشعر بالدفء الآن كما تريد أن أرتديها ! »

• وفلسفة أناطول مزيج من السخرية والرحمة فهو يحتقر
الإنسان . ولكنه يعطف عليه ويتألم لمصائبه وكانت أفكاره
كأفكار رينان إلا أنها تهذبت عن ذى بدء . وفي هؤلاء المرتابين
الساخرين بالحياة يقول فرانس :

لقد كان ثولثير ساخطا على العواطف التي تجعل بني الإنسان
منغصين ، مبشرا بالحياة السعيدة وروح الموائسة .

وهو الذي كان يعتقد باللاشئ . وهو الطيب القلب الساخر
المرتاب بالحياة القاسى على الجهلة والأشرار .

وكذلك رينان الذى عاش دهره ينقى الأديان ويعمل
لتوحيدها . كان يعتقد بالله ويدين بالعلم وهو واثق من مستقبل
الإنسانية !

أجل . لقد كان مرتابونا مملوءين بقوة خالدة وحمية نارية . قضوا
أيامهم فى جهاد لفك الأغلال عن أيدي بني الإنسان فهم قد يسون !
وكان له فى غالب الأشياء رأيان مختلفان . رأى لفريزته

وآخر لعقله . فغريزته طالبة للذات متنسمة ذرى المجد . متعطشة الى مناعم الحياة . والذين يعرفون فرانس يعرفون عنه ميله الى الجمال والفن . يحب كل شيء جميل من طعام شهى الى أزهار جميلة ومن حسناء لعوب الى أثر فنى جميل . حتى اشتهر بحبه لعصور الرومان واليونان لما فيها من جمال وفن ! وأنتك لترى ذلك جليا فى منزله الذى سماه « مغنى سعيد » حيث ملأه بالآثار الفنية الجميلة . وغرس فى حديقته الأزهار

وأما رأيه الثانى فهو يعبر عن ضميره وما يحول فى خاطره من أن العالم أنسانية معذبة وأن فيها من حادثات المكاره والخسة والوحشية مايجب أن نعمل لترح كفة الخير على الشر .. وهنا ينتصر ذلك الرأى الذى ينغص عليه لذاته - على غريزته .

وكان فرانس منكرا للوحى قائلا بدين الطبيعة وقد ساهم فى الاشتراكية والشيوعية . ووافق على مبادئهم بقلبه . ورأى فيها واسطة للتعديل والموازنة

وأنا تول فرانس يشك فى التاريخ ويقول أنه ليس علما بل هو ناقص . أما المؤرخون فهم رواة أقاصيص زخرفات وأحاديث تناسب مع عقلية كاتبها . فالمؤرخ لا يستطيع أن

يذكر الحقيقة التاريخية كاملة غير ناقصة بل لابد أن يهذبها أو ينقص منها . فإذا الحقيقة تملأها على المؤرخ إرادته . فهي مشوبة بالخرافات والخطأ .

• وهو يقر ما كس نوردو على قوله أن التاريخ ليس جديرا بالصفة العلمية . وإن هو إلا مجموعة من الخرافات التي تعلق بذهن المؤرخين ويضيف عليها هؤلاء من بنات أفكارهم ماشاءوا وشاءت أهواؤهم . إذاً فليس من فائدة من دراسة هذا التاريخ أو بالاحرى هذه السخافات والخرافات المجموعة في قالب قصصى ينظر إليها البعض كأنها حقائق لا غبار عليها فيقبلون عليها بغية الدرس والاعتماد عليها . فإذا جاءت حكومة من الحكومات وأرادت أن تحكمنا بنوع خاص من أنظمة الحكم وجهت نظرنا إلى جهة خاصة من التاريخ الذى تختاره هي ملائمتها ومبررات تصرفاتها فيكون ذلك بمثابة خداع من تلك الحكومة أرادت به تبرير أعمالها .

وهب أننا كشفنا عن كتابات قديمة أثرية مدونة بها أقاصيص أخرى تاريخية مخالفة فأن ذلك داع إلى أن ينبار صرح تلك الحقائق الأولى والتي سار على قوفها انكثيرون فقتلوا درساً

وتمحيصاً وذهبوا يملأون العالم بذكرها . ولكن تلك الكتابات الحديثة أضاعت معالم ما كتبه الأولون . وهكذا تبدل الحقائق وتتغير عقائد المؤرخين تبعاً لذلك - فبعد أن كان المؤرخ يؤكد شيئاً إذا به ينكره اليوم .

فالحقيقة التاريخية ممتنع الوقوف عليها وليس في وسع المؤرخ أن يحصرها في كتاباته . ومن شرائط العلم أن يحدثنا عما يكون في أحوال خاصة : ولكن التاريخ تنقصه الوسائل التي تدرك الحاضر واستدكار صورته . بل أن التاريخ لعاجز عن التنبؤ بحادثة واحدة .

وننتهى من ذلك إلى أن التاريخ هو مجموعة من الرسائل والمقالات ترمى إلى الحض على فضيلة من الفضائل أو اتباع نظام خاص من أنظمة الحكم . وقد يكون مجموعة قصص تشيد بذكرى بطل من الأبطال لا نعلم له من أثر إلا تلك الأقاصيص . فهو محكوم عليه بأن يعيش في أودية الفوضى الحالكة لا تنيرها أنوار الحق .

هذا ما يراه أناتول وفي كتابه آراء جيروم كوانيار تلس هذا المنحى من فلسفته حيث يشرح الأستاذ كوانيار ذلك ويذكر قصة يستدل بها وهي :

قال الأستاذ كوانيار : وإنى لذا كر لك ما قصه على
الآب بلائشيه من أن (زمير) أمير الفرس الصغير عند ما ولى
عرش فارس استدعى علماء مملكته وقال لهم أن مؤدبه قال له إن
الملك العادل القليل الخطأ هو من استنار بأعمال الأقدمين .
لذا فهو يريد أن يؤلفوا تاريخاً عاماً لجميع الأمم حتى يطالعه .
ولكن حذار أن ينقصوه حرفاً . . فانصرفوا طائعين وشرعوا
فى التأليف حتى مضت عشرون سنة مثلوا بعدها بين يدى هذا
الملك ومعهم اثنا عشر جملاً يحمل كل جمل منها خمسمائة مجلد
ضخم . . . وتقدم شيخهم فسجد بين يدى مليكه وقال : يامولاي
يتشرف خدمك علماء الدولة بأن يقدموا لجلالتكم التاريخ العام
الذى أمرتم به . وهو يقع فى ستة آلاف مجلد . فلم تترك ما
أمكننا جمعه من عادات وتقلبات الأمم ومواقعها إلى غير ذلك
من أقدم الأزمنة إلى الآن . ومقدمة هذا التاريخ العام تقع فى
خمسمائة مجلد ينوء بحملها جمل والتعليقات والشروح أيضاً فى
فى خمسمائة أخرى يحملها جمل آخر .

فأجاب الملك : « إنى لشاكر لكم ما بذلتموه من مجهود
وعناء فى سبيل تنفيذ رغبتى . إلا أنكم تروتنى مشغولاً بشؤون

الرعية وسياسة المملكة . وقد تقدم سنن فليس لدى من الوقت ما أقرأ فيه هذه الستة آلاف مجلد وأنظر في شؤون دولتي . فاحفظوا هذه المجلدات في محل المحفوظات واجتهدوا في عمل ملخص له كي أستطيع أن أطلعه .

وانصرف العلماء يكدون ويؤلفون . وبعد عشرين عاما أخرى جاءوا إلى الملك ومعهم ثلاثة جمال تحمل ألفا وخمسمائة مجلد . وتقدم شيخهم وكان قد أخذ منه التعب والهرم كل ما أخذ فقال بصوته الضعيف القاني : « يا مولاي لقد اختصرنا التاريخ كما أردت ولم تترك شيئا يستحق العناية ، فأجاب الملك : « يا علماء فارس . لقد هرمت واشتعل الشيب برأسي فكيف تطمعون مني في مطالعة مجلداتكم الضخمة ؟ هلبوا فاختصروه ولا تطيلوا المكث . ، فأب العلماء واشتغلوا بالاختصار حتى انصرفت عشرة أعوام أخرى جاءوا بعدها ومعهم فيل يحمل خمسمائة كتاب . وتقدم شيخهم فقال « لقد اختصرناه يا مولاي كثيرا ، فقال الملك « أتظنون أن اختصاركم هذا كاف لأن أقرأه وأنا في آخر أيامي . هلبوا اختصروه كثيرا حتى أقرأه قبل الموت ، وانصرفت خمسة أعوام أخرى جاء في نهايتها شيخهم وهو يتوكأ

على عصاه . وقد أنهكه تعب تأليف خمسين عاما فتجعد وجهه
وتقوس ظهره حتى صار على أبواب الأبدية . جاء هذا الشيخ
الفانى ومعه حمار صغير يحمل مؤلفا ضخما ينوء تحت ثقله .
فقال له الحارس : « أسرع . فان الملك فى النزاع الأخير . »

وحينما رآه الملك قال بأسف : « سأقضى قبل أن أعرف تاريخ
هذا العالم . » فقال شيخ العلماء وكان هو الآخر على أبواب الأبدية :
« مولاي سأقول لك تاريخ هذا العالم فى ثلاث كلمات : لقد
ولدوا وتألّموا وماتوا !! »

وبذلك عرف ملك فارس تاريخ العالم منذ القدم إلى الآن
فى اللحظة الأخيرة من حياته !

وبعد . فان فلسفة أناتول فرانس موضع درس عميق دقيق
فهو يعتمد على الحقائق التى يقررها هو . وإن كان التهمك يغلب
على كتاباته والسخرية تبدو فى سطورها . إلا أنها سخرية
ممزوجة بالعطف على الناس وطلب العذر لهم لأنهم ضعفاء .

اما الاعتقاد الدينى وتأثيره على الأخلاق فهو يرى أن
الأفكار الدينية لا تصلح الأخلاق . ويستشهد على ذلك بتاريخ

الشعوب المسيحية وهى سلسلة مذابح واضطهادات . وأن كنهة
العصبة الكاثوليكية كانوا متورعين ولكنهم كانوا أيضا قساة
الأكباد . وكذلك الباباوات الذين لطخوا صفحات تاريخهم
بالدم .. فكيف إذا تطمع فى أن تؤثر الأفكار الدينية على
أخلاقنا ونحن لسنا أشد ورعا من أبناء الأديرة .. وهنا تثار
نفسه فيحمل على البشر بأنهم حيوانات شريرة وأنهم يظلمون
أشرا ما دامت فيهم عروق تنبض ... ولكنه لا يلبث أن
يعطف عليهم ويعذرهم لأنهم ضعفاء ..

وقد قال يوما ، لا تدعون كاهنا مزعجا إلى فراش احتضارى
بل ادعوا لى امرأة حسناء وأحب أن أيدى جميلة تغمض عيوني
عند الرقاد الأخير ، .

... وسواء كانت عبقرية أنا تول نائرة غاضبة . أم ساخرة
هازئة . فلقد غمرت حياتنا بالضوء وأنارت الظلمات المحيطة بنا
وبددت الشكوك والأوهام . وقد قال الأستاذ لكونت رئيس
جمعية رجال الأدب أن فرانس مات عن مجد كامل وفلسفة
عظيمة هى زبدة أفكار حقبة عديده ، وخلاصة فنون أعصر
مديدة . ،

چوگاست

أول ما كتب

الأستاذ فرانس

في فن القصص

فى احدى لىالى يوليو القائظة وقد لبست السماء حلتها الزرقاء
وتوسطتها بضع سحب يضاء.

فى حديقة المنزل الخشبى الصغير الذى يملكه المسير فيلير
دى سيساك ، جلس رينيه لونجمار الجراح المساعد فى الجيش
يتحدث إلى ابنة صاحب الدار ، وهى هيلين ، فتاة غداء ، رشيقة
القوام ، غضة الاهداب ، رقيقة النفس ، عذبة الحديث

جلست هاته الغادة الصغيرة تنصت لأحاديث الطبيب
الشاب . وكان أمامهما على بعد كبير نهر السين العظيم ، الذى
ينعطف إلى الشمال بين شاطئين ذوى زرقه باهتة . وفى الفضاء
الشاسع كانت تحتفى نواقيس الكنائس العالية وسقوف البنايات
الشامخة تلك هى بارى . وكانت الأنوار المتساقطة على قبة
الاقاليد الذهبية تكون منها أشعة وهاجة تأخذ بالبصر . وإذا
رأت الفتاة محدثها يضع بعض الضفادع فى جيوبه صاحته به

— ما هذا يا مسير لونجمار ، أتضع الضفادع فى جيوبك ؟

ولكن هذا خارج عن الذوق السليم

— فى داخل غرقى ، يا آنسة ، قد ثبت واحدة على لوح من الخشب . وغطيتها ثم اتى أحرکها بملقطى الصغير

— ولكن هذا مفزع ! انها تتألم !

— انها تتألم قليلا فى الشتاء وكثيراً فى الصيف . إذا كان هذا الغطاء محمى من الداخل لوجب أن يكون الألم مضاعفا ولسكنت حركات القلب

— وماذا تبغى من إيذائك الحيوانات المسكينة ؟

— لأضع أساس نظرتى الاستقرائية فى الألم . وسأثبت أن الستوئيسيان^(١) لا يفقهون ما يقولون وأن زينو^(٢) كان معتوها . ألا تعرفين زينو أيتها الآنسة ؟ لا تعرفينه البتة . . لقد كذب وجود الشعور . ستعرفين من هم الستوئيسيان عند ما أقول لك أنهم بلهاء ثبتت عندهم نظرية خطأ عن الألم وحلوله تحليلاً مشوها لا طعم له . ولو أن أحد هؤلاء المعتوهين كان بدلا من هذه الضفدعة تحت ملقطى . إذاً لعرف أنهم كانوا

(١) الستوئيسيان *Stoicien* مذهب غير للكثيرين بالدمر

(٢) *Zenon* أحد فلاسفة أثينا وصاحب هذا المذهب (٣٤٢ - ٢٧٠ ق.م)

خيالى العقول حينما كذبوا حدوث الالم . ثم انه من المفيد لهاته
الحيوانات أن تتعود الالم .

— أتمزح ؟ وفى أى شىء . يمكن أن يفيد الالم ؟

— انه من الضروريات يا آنسة . هذا هو حامى الكائنات .
ولا ضرب لك مثلاً هذا اللهب الذى لو لم يسبب لنا من الأذى
الأول إشعاراً بالخطر لحرقنا حتى العظام دون ملاحظة .
نظر الشاب إلى محدثه وأضاف :

— وهذا هو موضع الجمال فى الالم . لقد قال ريشيه د أن
العبقرية والالم مترادفان . فأن أذكى الناس هم أكثرهم قابلية للالم
— بدهى أنك تألم أكثر من أى شخص آخر . وسأطلب
إليك بالحاح أن تبثنى آلامك . على ما فى طلبى هذا من طيش .
— لقد أفضيت إليك بها يا آنسة . أن زينو كان أبلها . إذا
تألمت كثيراً . فأتى سأشكو وأصبح . أما أنت ، فبصفتك ذات
شعور حساس وأعصاب رقيقة . فستلجئين إلى آلة موسيقية ذات
نغمات عذبة رنانة لها أثرها فى النفس . تعزفين على أوتارها الممانية
أنفيس وأمتع القطع

إن هذا معناه فى الفرنسيه أنى سأصير تعسة . أنك لا تطاق

ومن الصعب أن يعرف الإنسان ما إذا كنت جادا في أقوالك
التي تبدو من الغرابة بدرجة أن القليل الذي فهمته يجعلني في
حيرة تامة . ولكن .. دع هذا المزاح وكن عاقلا مرة واحدة في
حياتك إذا امكنك ، ثم قل لى : أحقا أنك ستبرحنا وستذهب
بعيدا ؟

— أجل يا آنسة . إلى « فال دى جراس » . رحيل ليس له
من نهاية وقد اخترت أن أتجرد من صبغى الرسمية وألتحق
كطالب في كوشين شين . ولقد قررت ذلك بعد تفكير عميق ..
أنك تبسمين يا آنسة ؟ أتظننى جذابا ؟ . ولكن أصغى إلى .
سأهرب أولا من الجمالين وخادومات الفنادق وصيانيها وتجار
الملابس وغير هؤلاء من أعدائى الذين ينغصون على سعادتى
بخدماتهم . فلن أرى قط هاته الابتسامات التى تعلو وجوه خدم
المتديات . هلا لاحظت يا آنسة أن خدم المتديات يحملون
عقلا راجحا ؟ أنها ملاحظة جديرة بالذكر . ولكن لا ضرورة .
لأن أذكرك ما يخطر لى من الملاحظات .. لن أرى بعد شارع
سان ميشيل .. وسأجد فى شغائى بعض آثار عظمية تساعدنى
على أنهاء دراستى عن تكوين الأسنان فى الجنس الأصفر

وأخيرا ، أفقد هذه الحياة التى تدب فى عروقي . وأذبل كالليمونة
فى أيامها الأخيرة . تلك الحياة التى تدفعنى بشغف لأن ألم بما
يحيط بى .. قولى إذا أن كل هذا يجعل رحلتى جميلة .

نحلت الفتاة فى الشاب بعينها الكبيرتين فى هدوء .
وارتسمت على شفتيها علامات الحزن والقلق .

أن عيناها اللتان تشعان شكا وقلقا ، قد اتخذتا منظر الجلود
الممزوج بالحب واستقام أنفها وغار خذاها قليلا .. فكأن
وجهها ، وقد شحب لونه يقول للسيدات : أن هذه الفتاة قد
فقدت حياتها .

وكان فيها الكبير فى شىء من النعومة يدل على الرقة
والسهولة . عاد لونها إلى أقصوصاته المسلية .

— لا يا آنسة . يجب أن أعترف لك أنتى فى رحيلى عن
فرنسا ساهرب من أسكافى . اتى اصبحت لا أطيق سماع
صوته الخشن .

وهنا سألته مرة أخرى عما إذا كان سيرحل حقيقة . فقابت
الابتسامة التى كانت تعلو فيه وقال :

— سأسافر باكر فى قطار السابعة والخامسة والخمسين صباحا

وستقلني الباخرة في طولون في السادس والعشرين إلى شاطئ
ماجنتا

وهنا طرق أذنه صوت كرات العاج التي تُكر فوق طاولة
البليارد في المنزل الصغير . وسمع صوتاً يقول بلهجة التأكيد :
— سبعة إلى أربعة عشر !

فالتقى الشاب نظرة سريعة على الباب الزجاجي الذي يؤدي
إلى اللاعبين . وقطب حاجبيه وقال عبارات الوداع بخشونة
وظهرت على وجهه علامات الضيق وأدبر مسرعاً وقد خنقته
العبرات

تبعته الفتاة ظله بلواحظها برهة . وهو يسير تحت أشجار
الخطمي . ثم نهضت وعدت حتى الحاجز الحديدي . ووضعت
منديلها على فمها لتمتع صرخة كانت ستدوي في هذا السكون لو
أنها أطلقت لنفسها العنان . . وبسطت ذراعيها ونادت بصوت
مخنوق :

— ريينه !

ولكنها هوت بذراعيها . فقد جاءت متأخرة ولم يسمعها
الشاب . وكانت تعباً فلم تستطع الوقوف . واضطجعت إلى

عمود من حديد وقد أصبحت في حالة يرثى لها . دوى صوت
اللاعب من القصر :

• — هيلين ! أين المادير (١)

هذا هو مسيو فيليردى سيساك الذى ينادى ابنته . أنتصب
بقامته القصيرة أمام اللوحة التى ثبتت عليها أرقام اللاعبين . يقرع
كرة البليارد برشاقة . وكانت عيناه تختفيان تحت حاجبين
كثيفين . وهياته تدل على أنه خسر الدور
قال لمضيفه :

— أنتى أقدم لك يامسيو هافيلان ماديرى الذى تحضره ابنتى
أنتى رجل بطيرى كى قديم . أما أنت فبصفتك من أهل الجزائر
فلست أشك فى أنك ذا خبرة بأنواع الأنبذة عامة وماديرى
خاصة أرجو أن تذوق هذا

أدار مسيو هافيلان بصره إلى هيلين وتناول بهدوء القدح
الذى قدمته له لقد كان هذا عملاقا ذا أسنان طويلة واقدام

(١) هو نوع من النبيذ للمعتق فى جزيرة ماديرا البورتغالية على المحيط
الاطلنطى

ضخمة . مشرب بالحمرة أصلعا . يرتدى حلة أنيقة . يرسل طرف
منظاره على منكبیه .

أختفت هيلين بعد أن تفرست في أيها شيء من القلق .
وقد اعتذرت عن حضور الغداء لأنها تشعر بانحراف . وفي
غرفة الطعام المزخرفة كأنها مقهى من مقاهى الشوارع .
جلس مسيو فلير دى سيسياك يملاً الكوبات ويقطع الطعام
وقد صاح : ،، هيه إلى بالسكين لقطع السمك : ،، عندما رأى
هذا أمامه وغمد طرف السكين بعنف وعلق فوطته عاليا في
صدريته وأخذ يمتدح أنبذته بلهجة سيرا كيوزيه جافة . أما
البستاني الذى كان يخدم منذ ستة فهو يقوم بخدمة المائدة
بشكل مضحك ويبلاهة لقد كان هذا نوع من القرويين الذين
يلقون في أذن سيده مقداراً كافياً من الأخبار المختلفة
دون أن يفهم هذا شيئاً منها .

أكل مسيو هافيلان ما شاءت معدته : وأصبح مُورّداً من
الشراب وخلد إلى السكون . أما مسيو فلير دى سيسياك فلما
كان قد أعلن أنه لن يتكلم في الأعمال . فقد أخذ يستعرض
سيرته الأولى . وكان وكيلاً للأعمال وله زبائن من الملاك

والتجار ، وقد اكتسب مالا كثيرا فى وقت قصير ، لأنه - وهو
ما لم يذكره - كان يرى زمنا طويلا يخب فى نواحي شارع
« رامبوتو » بجذائه الطويل ذى الكعوب المتأكلة . حينما كان
عملاؤه بعض القصايين وكانوا يجتمعون فى مكتبه المظلم فى فناء
منزل معتم مهمل .

وعلى بابه لوحة صغيرة كتب عليها اسمه فيلير والكلمات :
دى سيساك بين قوسين :
فيلير (دى سيساك) .

وعلى لوحة جديدة ، على باب مسكن آخر ، أبدل القوسين
بعلامة أخرى بعد الاسم الأول . هكذا :
فيلير ، دى سيساك

ولما أن نقل إلى مسكن جديد لثالث مرة وضع لوحة
جديدة هكذا :

فيلير دى سيساك

أما الآن فلم يعد يرى لوحات على باب وكيل الأعمال الذى
يشغل مسكنا فى الطابق الأول من احدى منازل شارع نيف
دى بتيت - شامب . وقد بنى قصرا فى ميدون . ومسيو فيلير من

سيساك قريبا من سان مامى - لاسلفيتا . بمديرية كانتال . حيث لا يزال أخوه يدير طاحونة إلى يومنا هذا .

ولما علم مسيو فيلير أن جزءا من البوت دى مولان يجب أن يهدم ليخلو محلا للمسرح الفرنسى أسرع يضع الخطط الوافية . ويرسم الخرط اللازمة . وحادث فى ذلك الملاك والتجار العظماء الذين يملكون مبانى فى البوت دى مولان . ولما كان مسيو هافيلان يملك منزلا كبيرا ملاصقا للبوت وعلى مقربة من المسرح فقد ذهب لزيارته فى قصر موريس . وهذا المنزل تملكه عائلة هافيلان منذ قرنين .

وهنا نرى أن نقص عليك شيئا من تاريخ هذه العائلة :
أسس المالى جون هافيلان مكاتبه فى عام ١٧٨٩ وكانت بينه وبين دوق أورليان صلات وثيقة . وكان يريد ترشيحه خليفة للوى السادس عشر ، إذا ، كما كان يحلم ، ما ظل الفرنسيون على نظام الملكية الدستورية . ولكن لأحوادث فى سيرها العنيف . ولا الدوق نفسه الذى لم يكن قد وطد العزم على ذلك . حققوا ظن المالى المقدام الذى انضم إلى البلاط وصار يعمل ضد الثورة . واتصل بالملكة بواسطة السيدة الجميلة أليوت . . ولكن . . لما

كانت القذيفة الأولى وسقطت الملكية نهائيا في ١٠ أغسطس
هرب الى انكلترا وأقام على صلة بدوق برنسيك والأمراء .
وأراد عامله دافيد أوار الذى كان فى عامه الأول بعد الثمانين ،
أن يبقى فى پارى ليرعى مصالحهم المهددة بالضياع . ولما لم يكن
قد حصل على تذكرة خاصة من الثوار . حامت حوله الشبهة
وقبض عليه ثم سيق إلى الكونسيرج (محكمة الثوار) حيث ظل
نسيا منسيا أكثر من أربعة أشهر قدم بعدها ، فى الثامن عشر
من يوليو عام ١٩٧٤ ، كالعصاة إلى محكمة الثوار التى قضت بموته
ونفذ الحكم فى اليوم نفسه على المقصلة التى نصبت على قنطرة
- ترون - التى سميت (رنفرسيه)

ولم يصب مصرف هاڤيلان ما أصاب غيره من السلب والتدمير
وذلك بفضل أمانة ونشاط هذا الشيخ أما البوت دى مولان
فقد انتهت شهرتها كبيت مالى وقد عرضوها للايجار وعند ما
تقرر هدمها ، كانت فى حالة تعسة قتم لونها ؛ وتلطخت بالسواد
وترى النوافذ التى على الواجهة وقد علتها الأصداف على طراز
لوى الخامس عشر ونصب تمثال هزلى يرتدى القبعه ، وقد
تخلع على القوس وامتد إلى المدخل وفى الزوايا نقوش ولوحات

زخرفية جزءها الاول ملون بالازرق والآخر بالاصفر وعلقت لوحات إلى يمين الباب وشماله وتحت القوس تحوى أسماء بعض الناسخين والعملاء . وفي الداخل ، أقيم على الدرج الحجري موقد فاخر من الحديد المطروق ، وقد علته الأتربة والبصاق والقاذورات . وتتصاعد منه رائحة قلوبه تنه . وتدوى من الداخل ، على أبواب الطبقات ، أصوات الأطفال . وتلح من الأبواب الداخلية النسوة في مآزرهن والرجال في قصانهم . أرسلت بهم البطالة إلى هذا المكان القفر يتسكعون فيه .

هذا هو منزل هافيلان في عصره الأخير .

ولما كان مسيو فيلير مكلفا بالمحافظة على مصلحة المالك . فقد زارها وعين ثلاثين متراوحانوتين مستقلين واثنين وثلاثين منافع مختلفة ، بما فيها الأسطبل حيث يودعه أحد التجار عربته . والسطح الذى اتخذه أحد العمال محلا يخطط فيه على ما كينته . وقد عملت بكل هذا مذكرة لتنير الطريق أمام اللجنة المشكلة من مجلس بلدى المدينة لتقدير العقار . وفى حالة ما إذا اضطروا للالتجاء إلى المحاكم ، تعهد مسيو فيلير بأن يقدم المحامى والنائب ويقوم بكل ما تعوزه القضية . وقد أدب مسيو فيلير مأدبة

للمسيو هافيلان أولا في بارى ثم في ميدون . وهو دائما يدعو عملاءه إلى مائدته حيث يبدى لهم أبلغ ضروب الحفاوة ، وأمام الزجاجات يعرف كيف يساير الرجال . تلك الزجاجات التي تعرف كيف تفتح مغاليق قلوبهم وكيف تجذبهم إليه . وهو نفسه يعبدها ويرى فيها الحياة والمثل الأعلى . وقبل أن يتسم له الدهر كان يجلس على مائدته التي غطاها بطبقة من قطرات الشمع يكرع النبيذ الأبيض ويأكل المارون المشوى . أما الآن فانه يستقبل زائريه في منزله الأنيق .

اتهى مسيو فيليز ومسيو هافيلان من شرب القهوة وقد انعكست أشعة الشمس الحمراء ، شمس المغيب ، على غرفة الطعام فأكسبتها لونا ذهبيا ، وكان رجل الأعمال المنتفخ الخدين يحدج في زائرته قائلا :

دعنى أذوق هذا الكونياك يا عزيزى الجزائرى وقد بدى له لقب الجزائرى أنيقا فتبعها بكلمة :

« البيون » ، يقصد إنجلترا ثم اعتذر لأنه لا يزال روماتيكى أحسنى مسيو هافيلان الكونياك وطلب كأسا من النبيذ قائلا : أرجو ألا يطول الانحراف الذى ألم بالآنسة فيليز .

نهض مسيوهاثيلان في غلظة أنجليزية وهو يتباطأ لآلم لحق
بركبيه من جراء الروماتيزم . وأرسل معطفه الأصفر على
ذراعيه . وبينما كان يجتاز الحديقة قال لمضيفه :

— لى الشرف أن أطلب إليك يد أبنتك الآنسة فيلير .

وقد كاد الرجل الصغير يندفع فى طيش فيجيبه بالقبول
ولكن الانكليزى عاجله بأن وضع فى يده ورقة قائلا :

— ستجد فيها التقدير الحقيقى لثروتى . أرجو أن يصلنى
ردك ضمن خطاب مسجل . آه تريد أن تصحبنى مودعا .. لا
سم سار فى خطأ متثاقلة إلى المحطة .

أخذ مسيو فيلير يفكر حتى أنه دار حول الكهف الصناعى
اثنتى عشرة مرة مشدوها . وقد أضاء وجهه القمر فأظهر خديه
المتفخين وبدا وجهه كأنه وجه تمثال مضحك . كان يحدث
نفسه :

— ماذا ؟ أن هذا الانسان يدخل منزلى كالأخرين . ولقد
عاملت مائتين فى عام واحد — أنه لم يقل شيئا وقد رأى ابنتى
سته مرات ولم يفتح فمه إلا ليطلب يدها منى . آه هذا ! ولكن ..
هل تمثل هيلين هاته المهزلة ذات الشخصين ؟ ولكن .. لا ! لست

بالآب الهزلى . لست بالكاساندر : (١) أتنى على اتصال بما يحدث
عندى . وعلى يقين من أن الفتاة التى لم تخاطبه أربع مرات
سترفض . عضن على بنانه ولمعت عيناه وهو يقدر العقبة التى
سيبترضه . ثم دخل القصر فمر من أمام غرفة الطعام وقرأ
الورقة التى أعطاهها له مسيو هافيلان . ثم صعد إلى غرفة أبنته
فوضع سيكاره على السياج الذى يحيط بالموقد وجلس كالطبيب
على رأس المضجع النائمة فيه هيلين .

— آه حسنا .. كيف الحال يا حبيبتى ؟

ولما لم يتلق جوابا أضاف :

— لقد سأل مسيو هافيلان عنك الليلة بلهجة ودية .

وتنفس مسيو فيلير عن أكلة ثقيلة وقال :

— وما رأيك فى هذا الرجل ؟

ولكنه لم يتلق جوابا أيضا . ورأى على ضوء الشمعة التى

تشتعل فى الموقد عيناها الجاحظتان . ووجهها المقطب .

وقد فطن إلى أنها عرفت مقصده فلم يربدا من مواجهتها .

(١) هذا الاسم يطلق رمزا للآب الذى يخدعه اولاده ويسخر منه الناس وهو
علم على شخصية من الشخصيات الأولى الممتازة التى وردت فى الروايات القديمة

— أن مسيو هافيلان يريدك زوجة .

فأجابت

— لا أريد زواجا . أتى سعيدة معك

فوضع يديه على ركبتيه وتأوه من خنجرة لحنها وسداها
من المسكر ثم ما لبث أن اتخذ حياة رجل الأعمال وقال :

— فليت . أنك ترفضين ما أجبته إليه ؟

— آه حسنا . ماذا أجبته ؟

— لم أقل شيئا يغضبك يا أبتى . أتى إريد أن أدعك طليقة

ولا أستعمل الحق في أخضاعك لأرادتى . أنك تعرفين حق
المعرفة أننى لست بقاس .

فتمتت :

— لا أنك أب صالح . ولكنى لا أريد أن أتزوج . أنك

لن ترغبنى على ذلك .

فعاد للكلام بلطف :

— أتى أكرر ماقلته أنك مطلقة الحرية . ولكننا نستطيع

أن نتناقش . أتى والدك الذى يضر لك الحب والأخلاص
ويمكننى الآن أن أصارحك أشياء لا أشك أنك ستقدرينها .

بما أنك فتاة كبيرة كاملة . لتناقش كصاحبين : نحن نحيا حياة لا بأس بها . ولكننا لا نمتلك ما يطلقون عليه الثروة . أتى ابن أعمالى ولقد أصبحت تعباً . تعباً جداً ! ولربما تنتهى مرحلة حياتى قبل أن أشاهد قرانك . أنك فى الثانية والعشرون . واليد التى تمتد إليك اليوم ليست بمستحقة رفضك . أن هافيلان ليس شاباً - ها أنت ترين يا بنية أتى عادل - ولكنه رجل عصى . يتمتع بشيء كثير من اللطف . ثم أنه على ثروة عظيمة . - ولما نطق بالكلمات الأخيرة ضرب جيبه الذى وضع فيه الورقة التى أعطاهها له الإنكليزى واستمر :

— أن شيطان هافيلان يقف على قمة ثروة هائلة . ضياع ، قصور ، نفائس ، ثرة عظيمة ، كل هذا ! أنه لعظيم ! فظهرت عدم استحسانها وهزت منكبيها . عاد الوالد الى حديثه :

— لا تقضى يا ابنتى ، أتى أريد أن أزوجك مايسمى زواج المال . كلا ! أتى أحبك وأحب سعادتك .

وهو يحبها حقاً . وقد انحد صرته عند ذكر المحبة . قال :

— لقد أراد الله ألا أبغى فى هذا العالم إلا سعادتك . أتى

أعرف أن هذه مسألة الشعور . ولما تزوجت بوالدتك لم أنظر إلى الثروة . أتريدن أن أصارحك القول ؟ أتى رجل خيالى . آه ! أتى شخص رومانتيكى . هل تعلمين ماذا كنت أفعل لو أتى لم ألق نجاحا فى عملى ؟ أتى لأعتزل بعيدا فى الخلاء لأنظم الأشعار . ولكن ماذا تبغى الآن ؟ لقد ضحيت نفسى الخيالية وروحى للأعمال . والآن قد أصبحت شيخا فانيا ! آه يا آنسة ! أن الحياة ليست كلها موردة فيجب أن تتعلمى خلق التضحية . أتى أريدك أن تسعدى يا بنيتى . أريد أن أمنع عنك شبح البؤس والفاقة . كفى أن والدتك التعيسة قدمت نفسها قربانا على مذبح الواجب . ماتت ضحية الواجب ، أسمعين ؟

مر يده على عينيه . لقد ماتت زوجته حقا أثر مرض صدرى وسط عائلتها فى نيورت حيث أرسلها هو لقضاء بعض الأعمال . أخذ رأس أبنته بين يديه وجعل يمطرها بقبلاته ويصعد الزفرات الحارة :

— أصغى إلى أتى أعرفك جيدا يا ليلى يجب أن تتوفرك . السعادة والعظمة . أن هذه غلطتى لقد كنت طماعا لم أجد عندى أعظم وأجل من هذا لأقدمه لك . لقد ريبتك للثروة أنك لم

تتعلى لا الخدمه ولا الحساب فاذا لم تصيرى غنية تكونين أنعس
نساء العالم وسيقولون أنتى مصدر تعاستك أية مسئولية يتحملها
أليك المسكين ! أن هذا يقضى على ! ولكن .. لقد آتى الثراء ..
هاهو ذا يقرع بابك . ماذا ؟ أيتها الصغيرة . فلندعه يدخل فكري
جيداً ؟ أنتى أحبك . أعجب بك وأقدر ما يلائمك ! إن الحب لن
يخدعنى . دعينى أفعل .

سألت هيلين بفتور عما إذا كان مسيو هافيلان يقيم باستمرار
فى پارى . فصاح والدها الذى لا يعرف عن ذلك شيئاً ! أجل .
بالتأكيد !

وأضاف بان أخلاق صهره المقبل حميدة . وشعوره راق .
ثم طرق الباب الاخير فأخذ يتحدث عن القصور والعربات
والحلى .

أخذت هيلين فى استعراض خواطرها . لقد مضى رينيه
لسفر طويل الأمد دون أن يتفوه بكلمة عن حبه . أو عن أمله .
لو كان قال أنه سيعود ! أو ترك تذكاراً ! ولكن شيئاً من ذلك
لم يكن . وهذا يعنى أنه لا يحبها . أجل انه يحب كتبه وأبحاثه
وضفاده . لقد كانا يتحدثان ولكن محض نظريات . هذا كل

ما هنا لك ولكن ما يقوله لها هو عين ما يقوله لغيرها ! فهل يحبها حبا صامتا خفيا كما ظنت ذلك مرارا ؟ إذا فستنتقم من هربه . ثم ان والدها محق فيما قاله من أنها لم تخلق إلا للغنى والآية . . ولكنها تعود فتفكر كيف ستقاوم ؟ وأى تعب يتأهلها من هذا النضال .

لقد كانت هيلين من النفوس التى تلين للفشل اذا ما فاجأها فى المرحلة الأولى .

ها قد عرض لها أخيرا الحب الجديد . . حب الأجنبي الذى طاف العالم خمس وعشرين عاما ، وهى تعلم تماما كم هو متين هذا الحب ، وهو الذى أوحى لهذا الثرى الذى ، بعد ثلاثة أشهر كلها زيارات يطلب يدها فى سكoon ماذا لها لقه وثروته .

هذا الرجل الجديد ، ألا يمكن أن تحبه ؟

رفعت رأسها وتمتمت

— سئرى .

٢

. من الحق أن هيلين فيليرولدت ونشأت لتكون ثرية . وهي لا تزال تذكر للطفولة تلك الجوارب المثقوبة ، وما كان يلحق قدمها من البرد . وقطع اللحم النتنه التي كانت تبغضها . والثقوب المنتشرة تحت الابواب . ثم وجه والدتها الطويل في ليالى الشتاء ، أنها تذكر أمها فى أطوارها المختلفة حينما كانت تزأر وهي حانقة ثم وهي حزينة تتعذب .

خرجنا ذات مرة للتنزه . أين ذلك ؟ ومتى حدث ؟ هذا ما لا تذكره هيلين . انما يعلق بذهنها أنها كانت جد حديثة السن . وفى المساء أمرتها والدتها أن تنام ثم خلعت قميصها وغسلته فى الحوض . ولقد طربت حينذاك لمنظر والدتها وهي تتدثر بشالها وتعج أيديها بالصابون . ولكنها حزنت كثيرا حين اكتشفت أخيرا أن والدتها لم تفعل ذلك إلا لفقرها المدقع .

ولقد كانت ، منذ حداثتها ، مخلوقة لطيفة المشاعر تحس وتألم ، وكم أعطت لرفيقاتها الفقيرات قطع الحلوى وملابس قديمة لعرائسهن اللاتي يلعبن بها . وكانت تقنن عصفورا

أودعته قفصاً تملأه على صاحبه بقطع السكر والحلوى . هذا
العصفور الذى بقدر ما أفرحها . سبب لها هيوماً وآلاماً لا
تطاق . لقد فعلت كما جاء فى دواوين الشعر : « لقد شيد برا كبو
مقبرة لصرصوره الذى عرف منه بان الانسان مصيره الفناء ،
وهكذا حزنت هيلين على عصفورها . زمناً طويلاً . أما والدتها .
فلما كانت ترزح تحت أعباء البؤس ، والضيق ، وخلو أيدي
زوجها من المال ، فقد خلت من هته العواطف ، وهذا الهدوء
والاطمئنان إلى الحياة . بل لقد خلت من كل عاطفة تحملها الأم
لأبنائها الصغار . وتجردت من المجاملات والمداعبات التى تقابل
بها الأمهات هته النفوس الصغيرة المظلمة التى خلفوها إلى العالم .
وهيلين فى طفولتها جد قديرة على تمييز شتى المعاملات الطيب
منها والردى . ذات يوم صاحت أمها فجأة : - أن هذه الفتاة
ستميتى . اتى لا أعرف ما الذى جنيته فى حق الآله حتى
يرزقنى بهذا الوحش المفترس

ثم أزدبت ، وانفعلت فأخذت تصعد الزفرات الحارة
وتدفع بالابواب ، وأمام هته الثورة ، انسلت هيلين المسكينة
إلى مضجعها فى هدوء . فنامت ودموعها تسح على خديها . وفى

الصباح أفاقت على صوت القبلات ، والمداعبات ، والاغنية التي نظمتها لها والدتها .

أما والدها فيلين ترى فيه الظرف والعظمة . وكم أعجبت بمنكيه العريضين وصديريته البيضاء فهوأله بالنسبة لابنته ، ولكنه على طريقة الآلهة ، قليل الظهور ، يغيب يومه ويعود متأخرا

كان يصحبها أحيانا في عربة إلى الحديقة ، وإلى المقاهي حيث يقدم لها حلو الشراب . وكانت تمتد طرف لسانها في كوبة أيها وينبسط وجهها عند ما تذوق مرارة الشراب الأخضر وكان هذا من دواعي سرورها . ولكن لم يكن هذا السرور ليدوم طويلا فان الآلهة يعود إلى الاختفاء . فتجلس إلى جانب والدتها تفكر في والدها المحبوب . وهي تستعرض صديريته البيضاء التي تخطف بالبصر وكانت تميل إلى الكسل والبطالة . ولم تكن ما دام فيلير لتلتفت لبطالة فئاتها وخمولها . وقد طبعت الاخيرة على حب الأناقة والآلهة وكان ذوقها في الملابس وترتيب المائدة محل أعجاب مسيو فيلير .

وفي السابعة من عمرها وضعها والدها تحت إشراف سيدات كالفير حيث التحقت بنزلهم في أوتوى . وقد ارتاحت كثيرا

لته الملابس البيضاء ، ووجوه الأمهات الناصعة البياض ،
والسكون الذى يشمل المنزل ، وطمأنينة الحياة العادية .

وفى يوم قيل لها أن والدتها التى سافرت من مدة لن تعود
قط . وقد أفرعتها هاته العبارة فأنفعلت واجهشت بالبكاء . وقد
ألبسوها رداء أسود وأخرجوها إلى الحديقة . وقد بدت لها
الحديقة قطر واسع مليء بالأسرار ، والكائنات الحية ، ومعنى
جميل . ومهد المعجزات .

وكان والدها يزورها كل أسبوع حاملا لها الحلوى . وهو
يمتلئ حبا وإعجابا بها . وقد أنهكه التعب ومل العمل طوال
الأسبوع . فهو يرى كل يوم خميس ، وقد نظم شعره ، وحلق
ذقنه ، ورتب ثيابه ، فى مطبخ سيدات كالثير . وقد بدى منظره
سعيدا وخديه الأبيضان ذو أنساق لطيف . فهو محل تقدير
وأعجاب الأم سانت جنيف مديرة نزل أوتوى . كذا كانت
تحلم به اثنتان من كبار سيدات المنزل أثناء سباتهن .

أما هيلين فهى تجل والدها وتعجب به أيما أعجاب . وفى
الحق كان مسيو فيلير جديرا بالبطولة وفى يوم خلت فيه جيو به
من النقود . استعار من صديق له مجموعة أشعار الفريد دى

موسيه ، وقد رآها على الطاولة ، قائلاً : « أنتى أريد أن أقرأها
لمائة مرة ، ثم ذهب يبيعها فى الشوارع ليشتري قفازا ، جلس
يفك أزواره دون عناية فى اليوم التالى أمام الأخت الراهبة
المعكفة بالاتصال بالالهالى . أما الحلوى التى يحملها إلى إبنته
ولصديقاته فى كل زيارة فهى من محل ممتاز ، موضوعة فى علب
فاخرة تدل على ذوق سليم . وقد أعجبت الأم سانت جنثيف
واستشارته يوما فى مشكل طارىء . وقد بذل فى سبيل ذلك
وقته ومهارته وذكائه . وكم اهتز زهوا وعجابا وترنح خيلاء وهو
يقلب ملفات القضايا أمام الأم المحترمة . ويبل أصبعه من
طرف لسانه فى شىء من الوقار والتيه . ويندفع يشرح للام
ما شكل عليها فهمه يبحث ويحلل ويدافع ويناقش . كل هذا
والسيدة الجميلة ذات الرداء الأبيض تنصت فى امثال ، وقد
ارتخت عيناها ، وتدلت أكام ثيابها على يديها . لا تتكلم إلا بصوت
منخفض . الامر الذى لم يصادفه مسيو فيلير طول حياته بين
زبائنه كثيرى الضوضاء والجلبة .

وكانت الام سانت جنثيف تتخلق بخلق العصور الماضية
فقد أبى ظرفها أن تشك فيما إذا كان مسيو فيلير يبغي نقودا .

لقد قدم إلى هته الجمعية الدينيه مبالغ كثيرة . وكم داخله السرور حينما سمع يوم أحد الوعظ المسائى فى أحدى الكنائس الصغيرة . ثم اكتشف ابنته مكبة على كتاب الكنيسة بين حفيدة مستشار قضائى وابنة عم أمير ، وبعد أن أنعم النظر إلى شعرها الجميل ومنكبيها اللطيفين ، لمع زجاج نظارته ، وتمخط كما يفعل فى الممثل بعد المواقف العنيفة

لقد كلفته أعمال هته الجمعية بعض المال ولكنها ربطته بعلاقات مفيدة . وقد حدث نفسه :

— لقد أكتسبت شهرة كبيرة وذاع صيتى .

وقد اكتسبت صديريته لونا جديدا . وزهت على صدره آثار تلك المادة التى يلصقها بها كلما عن له أن يتمخط !

نمت هيلين وازدادت حسنا وبهاء . واكتسب شعرها لونا ذهبيا بعد أن ظل ردحا من الزمن يعج بلون باهت كهذا الذى كان لأمها . فاصبحت فائقة الجمال ، غضة الأهاب ، رائعا البهاء تفيض نفسها الشاعرية عطفًا وحنانا وقد اتخذت لها صديقا تدعى سيسيل تزورها فى الأيام التى يسمح لها بالخروج فيها وهذه الصديقة هى ابنة لرجل يشتغل فى القطع ، وكانت هذه

المخلوقة الصغيرة الثرية في السادسة عشر . تبدو عليها مظاهر الطفولة والوجاهة ، ووداعة الإخلاق . ولكنها تحمل نفس سيدة في الثلاثين من عمرها الشيء الذي جعل لها مركزاً ممتازاً بين صديقاتها .

ولقد اقتادتها يوماً عند والدها ، في ياسي ، في غرفة أنيقة ملاءى بالطنافس حيث قدمت لها الحلوى . ولقد بهرت عيناها هته الطنافس . ولكنها ما كادت تخرج حتى بدى لها كل ما رآته نافها لا قيمة له .

وقد استسلت لأحلام لذيذة . وأمانى طيبة . وأصابها مرض معدى أقعدها عن النهوض . فهي غارقة في بحر زاهر بالأحلام تشهى في أن يكون لها غرفة زرقاء تقرأ فيها القصص وهي مضطجعة في مقعد طويل .

وفي ذات مساء سمع صوت ينادى : النار ! فذعر كل من في المنزل وخرجوا مهرولين البعض في ملابسهم الداخلية ، والآخرون مندثرين بالأغطية ، الصغار منهم يتبعون الكبار وهم يتعثرون في قمصانهم الليلية الطويلة . وسرعان ما تبين كذب الخبر وأن النار لم تشتعل إلا في رأس هته المخبولة صاحبة هذه

الأكذوبة . أما الأم سانت جنيف فقد وبخت هذا الجمع الحاشد بقدر ما أثنت على هيلين التي لم تترك مضجعها . والواقع أنها لم تكن لتغادر مضجعها لأجل مثل هذه الأخبار . بل كانت تحلم في هذا الوقت ، في الحلى ، والملابس ، والخيول ، والنزهة ، والقوارب ، ثم تعود فتسح الدموع لذكرى والدها .

وقد خرجت من هذا المنزل وهي تحسن إداء التحية في غرفة الاستقبال . وتجيد العزف على البيانو . وقد صار منزل والدها لائقا بها . وأصبحت تملك غرفة زرقاء . وقد لاقت من والدها عطفًا وحنانًا . وكان يصحبها إلى الملاهى حيث تتناول عشاءها بعد انتهاء التمثيل . وقد عرفت أن هذا الأب الظريف هو غير ذلك الذى كانت تراه في نزل سيدات كالثير حيث تعلت آداب المعاشرة والحديث والذوق السليم

وقد جذب جمالها جمعا من الناس كانوا يجتمعون عند والدها ولكن أحدا لم يفكر في طلب يدها بل أنها لم ترى بينهم من هو كفو لأن يكون بعلا لها إلى أن ظهر أخيرا شاب حاز أعجابها . هذا الشاب هو رينيه لونجمار الجراح الملحق بالجيش . الذى أوفده والده الوسيط التجارى الشيخ فى أردن لقضاء بعض

الأعمال عند مسيو فيليردى سيساك وقد قطن شارع نيث - دى
بتيت شامب

وبالرغم من امتلاء جسمه القوى ، ووجهه الممتلئ صحة ،
فانه لم يك جميلا . وكان حديثه على شئ من الخشونة والأبهام .
ولكن هيلين أحبت رؤياه وسرت لحديثه . وكان يتحدث إليها
عن الدين والاخلاق ملقيا إليها بنظريات غريبة ، كانت تسر
منها ولكنها لا تفهم منها شيئا !

وقد قال لها يوما :

— أن الانسان جاء من سلالة القرودة !

ولما شدهت واحتجت أخذ يؤيد نظريته ببراهين كثيرة
معقدة ومضحكة . وقد اصطحب لونجمار بعض اصدقائه .
وتكونت هيئة من الشبان العلماء عند هذا الطيب القلب مسيو
فيلير الذى لم يعره أى اهتمام

وقد جاهر الجراح ببعض الآراء منها :

أنما الفضيلة عجز .

البسالة والقداسة هما نتيجة احتقان فى المخ . الفالج العام
ينشأ وحده الرجال العظام . الآلهة هم صفات .

وقد صاحت به :

— حذار !

ولكنها لم تحجم عن سماع حديثه والاعجاب بهته الحرية والصراحة يدفعها إلى ذلك عامل خفى . حتى أنه في المساء بين قدح الشاي وزجاجة الكيرش كان يلقي عليها دروسه العظيمة وأحاديثه عن الطبيعة وغرائبها وأهوالها .

ولكن كان يرتفع من الردهه المجاورة أصوات أخرى عن القضايا التجارية وأعمال المناقصات والمزايدات !

وهنا يبدو لها شبح عظيم يتقدم في هدوء تعلو وجهه حمرة قانية . تبدو عليه علامات النبل والعظمة . هذا هو مسيو هاثيلان وهيلين تقدره وتعلم أنه سليل بيت عظيم ، ورييب المجد والعظمة وتلمح منه آيات الحب ولو أنه لم يفتحها بل لم يخاطبها طيلة حياته أما لو نجح فهو في كل محادثاته ساذج يحترمها ويعجب بها سرا . ويحاول أن يدخل السرور إلى قلبها بأحاديثه فهو دائما يحافظ على الظهور أمامها بمظهر الرشاقة في الحديث والاستهواء بنكاته .. كان يشعر في أغلب الأحيان بالثبات يحكم عاطفته لاعتياده على النظام العسكري ولأنه يعرف كيف يستعمل

شجاعته الاديية . أنه يحب من يحادّثها ويحس قلبه يخفق ولكنه
لا يتحرك بل كان أحيانا ينحبس لسانه فى حلقه ..
وهو لا يمتلك إلا مرتبه وهو يعلم أن الآنسه فيلير لم تكن
ذات ثراء وافر ..

ثم هى تعطف عليه وتذكره حتى هذا اليوم الذى جاء مودعا
فيه . وكم أثر فى نفسها ذلك الفراق . وكم أقض عليها مضجعها
ذكراه .

٣

كان منزل البوت دى مولان قد سقط بناؤه وكسر المعول
الوجه الرمزى الذى لون إحدى خديه بلون أزرق والآخر بلون
أصفر إلى قطع صغيرة . واختفت الغرفة الصغيرة التى قبض
فيها على الشيخ دافيد أوار الذى قدم إلى محكمة الثوار ثم إلى
المقصلة . وبعد مدة وجيزة كانت سحب التراب التى تهب إلى
الشوارع المجاورة تحمل معها آثار هته العمارة القديمة فتصاعد
أتربتها ذى الرائحة الخائقة إلى حناجر الرجال والجياد التى تمر من
هناك . والآن لا يعرف سكانه ، وبينهم صباغ وصانع مفاتيح ،
مكانه الحقيقى .

زادت أملاك مسيو فيلير دى سيساك فى ميدون ، وقد زاد
من حجم الأعمدة الحديدية التى كانت تكون الباب العمومى
للقصر المجاور وضم إليه مساحات الفضاء المجاور . حيث بنى عليها
قصرًا صغيرًا ذو شرفات عالية . فى أسفلها فتحات عليها نقوش
بديعة . وأطلق على الجميع - معنى سيساك - وفى ذات يوم علق
على الباب الكبير لوحة كتب عليها أن المنزل والقصر وما يتبعهما
للبيع أو للائيجار .

ومرت الفصول الأربعة واللوحه ترقص وسط الرياح وأثر
حميها أشعة الشمس وهطول المطر . فاصفر لونها وتكسر شكلها .
أخيرا ، في أيام الربيع ، وقد انتشر سكون رهيب على
ميدون ، دخل القصر الصغير رجال متقبعون بقبعات من الجلد
يسرون بخطى ثقيلة . قد نأت أكتافهم تحت البنادق ، هؤلاء هم
جند الألمان . فاشعلوا النار في الموقد الكبير والأرضية المدهونة
بالزيت . وقد تشقق السقف وتصعد البنيان .

وجاء الشتاء العظيم . وغزيت فرنسا ، ثم حوصرت پارى
وفي هذه المحنة العظيمة ، محنة شعب بأسره ، أقل حظ مسيو فيليير
وانتهت ثروته إلى الفناء . ولما أن تعطلت حركة العمل ، وتعطلت
محكمة السين في عهد وزارة شيغاندى ، وجاء ذلك ضربة قاضية
على مكتب الأعمال الواقع في شارع نيف - دى - پتيت شامپ
وذهب مسيو فيليير الذى تجههم له الدهر مرة ثانية يحمل ردينجونات
القدرة وعويناته ذات الأصدا ف . ولم يعد يصنع ذقه ، ذهب
إلى محلات المقامرة حيث غامر بنقوده الباقية فخرها .

ومنذ أن غادرته أبنته وهو يتلقى فتيات جميلات ولا تلتقى
به فى ممثل الفولى برجير إلا وراه متأبطا ذراع امرأة . وفى أثناء

حصار پارى أسس شركة للتأمين على الحياة «عقلاء»^(١) المحرمين
الاصلي، ولكن أحدا لم يعرها أى اهتمام .

تزوجت هيلين وقامت بسياحة استغرقت أربعة أعوام .
فكانت تلك الحياة بنعيمها داعية إلى سرورها . ثم أن عظمتها ،
جمالها ، أبتها ، وملابسها الفاخرة ، كل ذلك كان داعيا للأعجاب
بها أينما حلت ، فى الفسادق والملاهى حيث كانت ترسم على
وجهها وفى حركاتها مظاهر الأرسوقراطية . وقد خفق قلبها بحب
زوجها ، ولكنه كان مملا . فهو يرى ويسمع ويتكلم بمظهر
واحد . لم يكن ليميز بين الاشياء الكبيره والصغيرة . فكل شىء
لابد من تقديره . وقد ظل مرة يشاجرها زهاء ساعتين من أجل
ثلاث فرنكات لم يعرف أين صرفتهم .. فهو يصرف الكثير
ويدقق على القليل . والكرم عنده يتخذ مظهر البخل . ولقد
أباح لها أن تتصرف فى أيراده وتبدد ما تشاء على شريطة أن
تسد كل ما يطلب منها وتودى كل الواجبات . فتصرف ثلث .

(١) اسم لطائر وهمى فريد في نومه . عاش فرونا عدة ومات على إلهوسد نيم
بعث من نيمه

حياتها في حساب السنتيمات مع خدم الفنادق وكانت له خطة لا يضيع معها نصف سنتيم هباءً .

ومن جهة أخرى فهو يدير حركة قياس الأبعاد .. إرتفاع ميزان الحرارة .. ودرجات الميزان الجوى . اتجاه الرياح .. والسحب حتى أنه كعب مساحة فضاء فرجينيا فى نابل .

وهو يحب النظام ولكنه يحبس نفسه عن الألم عند ما يرى صحيفة تظل مفتوحة وملقاة على مقعد طويل . وقد أغضب هيلين لأنه رآها أكثر من عشرين مرة فى اليوم ممسكة بكتابها أو بأدوات التطريز . وقد تذكرت هيلين والدها الذى كثيرا مانسى سكاثة على أذرعة مقاعد السيدات ! ولكن لم يكن هذا شيئا هاما . إنما أصدق الألم الذى تزرع تحت عباء هو حياتها مع رجل دائب التفكير . وهو لا يعرف كيف يعبر عن شعوره ولا كيف يدخل السرور إلى نفس أخرى . فنذا أن تزوجها ولم يفتح فيه بغير الأوامر . وأنتك لتقدر ألم زوجة شابة عند ما يكون زوجها غير قادر على إدخال السرور إلى قلبها . حقا أن قلبه يحمل لها شيئا وافرأ من الحب والعطف ولكن حبه شبيه بقطرة من قطرات المطر الرفيع . لا يدركها بصر ولا تسمعها

أذن . لا تريد أن تنقطع ، تنفذ إلى الداخل وتسبب بردا خفيفا
وبذا تشعر بوجودها

ويلحق بالسيد هافيلان خادم قد طاف معه العالم مرتين .
وهما لا يفترقان البتة عرف السيد خادمه الفرنسي جرول شابا
في أفرانش ولم يكن هذا الأخير جميلا ، ذا شعر أحمر وعينان
زرقاوان تشعان شكا . يعرج في سيره ولكنه كان نظيفا يؤدي
عمله بهمة نادرة . تزوج من امرأة في خدمة الميسيو هافيلان . وقد
تركوها في پاری حيث تقوم بحراسة المنزل المبنى حديثا في شارع
«لاتور - موبورج»

ويشتغل ميسيو هافيلان بالكيماء . وساعده الأيمن جرول .
وكما أنه يتعاطى الأدوية يوميا . فأن جرول يدير صيدليته المتنقلة
كان هذا الجرول حاد الذكاء يحضر الأدوية بنظام ثم هو يصلح
كل ما يتلف في المنزل . ولقد أبدى مهارة في عمل المفاتيح . له
بدان نحيفتان ذوى شكل غريب . وسبابتان مفزعتان . وهذان
البدان تقومان بأدق الأعمال والطفها . ومع أنه ذو مهارة فائقة
في الفنون الآلية فإنه لا يجيد الكتابة بشكل يقرأ . وقد اخترع
جروف هجا خاصة لا يعرفها سواه . ولا يمكن التوصل بأى

حال إلى مميز حرف أو عدد في الورقة التي كتب عليها حساباته بخط هو غاية الردائة .

وكانت كتاباته الرمزية المخيفة ، ومخالبه البشعة ، ومشيته العرجاء ، ورائحة الأدوية التي تهب من جسمه الذي أبى الأكسيد إلا أن يترك عليه آثاره ، كل هذا دعى لأن تخافه الخدم والطهاة ، الذين سموه كلوشون - كما يخافون الشيطان ، وقد حكموا عليه بأنه قادر على عمل كل شيء ولكن جرول كان بعيدا عن أن يرتكب أى خطأ .

أما هيلين ، التي كان يمجها في الباطن فقد خدعتها مظاهره ولكنها سريعا ما كشفت أنه لا يترك فرصة دون الإيقاع بينها وبين زوجها . وقد أحاطها بشيء من المظاهر الخداعة . فكان خادمها الأمين الذي لا يرحها لحظة واحدة

ولم يكن سوء ظن سيده داعيا لخوفه فهو يعلم أن ثقة سيده فيه عظيمة وأن هذا الأخير لا يقصيه عنه بهذه السهولة ولسبب تافه . أن علاقة مسيو هافيلان بخادمه جرول ترجع إلى عشرين عاما . حينما كانا يبحثان سويا عن صامويل أوار .
واليك هته القصة :

كان مسيو هاڤيلان لا يزال حديث السن حينما سمع عن موت الشيخ دافيد أوار الذي ذهبت المقصلة برأسه عام ١٧٩٤ وقد كان هذا الباسل مثال التضحية والوفاء ، فإنه بقى على عهده لمخدوميه . وضحي حياته فى سبيل حفظ ثروتهم التى ولوه أمينا عليها . وقد أعجب وريث هاڤيلان بهذه المروءة وأكبر فيه البسالة والوفاء فلما تولى ثروته بنفسه أخذ يبحث عما إذا كان هذا الرجل قد ترك سبيلا له . فعلم أن ولده الصغير ويدعى أندرو أوار يشتغل بالتجارة فى كالكوئا . وفى الحق كان أندرو أوار متأهلا بسيدة هندية وقد اشترك مع رجل براهمى لتأسيس شركة تجارية تحت اسم : « أندرو أوار ، وليسا ليسالى وشركاهم ،

أبحر مسيو هاڤيلان مع جروول ليقابل أندرو فى كلكتا ويقول له : أن جدك قد ضحى نفسه فى خدمتى وكان فى ذلك مثال الشرف والمروءة . فاسمح لى أن أصالحك . وألا يمكننى أن أحوز شرف خدمتك ، فأؤدى لك أى شىء تطلب ؟ ، ولكن . لما وصل إلى كلكتا ، فى عام ١٨٤٩ ، علم أن شركة أندرو أوار وليسا ليسالى وشركاهم ، قد انحلت بموت مسيو أندرو الذى قضى عام ١٨٤٨ - ضحية الكوليرا تاركا زوجته وابنه صامويل

الذى لم يتعد الرابعة . ولما لم تكن مادام أندرو بذات ثراء فقد تركت المدينة مع ولدها الصغير . ولم يتمكن مسيو هافيلان من ترسم آثارها . ولكنه علم أن ليسا ليسالى فى جزيرة بوربون . فذهب إليها حيث وجد البراهمى يعطى دروسا فى الانجليزية لأولاد حاكم المستعمرة . وقد قال السيد ليسا ليسالى للمسيو هافيلان أن أرملة أندرو أوار قد اصطحبت ولدها إلى أخيها مسيو جونسون أحد ضباط الملك السابقين .

وقد انتهت أبحاثه عند هذا الحد . وبلغ صامويل أوار الآن سبعة وعشرين عاما . وفى كل أسبوع كانت التيمس تنشر أعلانا يدعوهُ أن يعطى عنوانه للمسيو مارتن هافيلان فى پارى ، ولكن صامويل إوار لم يبد أى إشارة تدل على بقاءه على قيد الحياة . وقد والى مسيو هافيلان أبحاثه منذ خمس وعشرين عاما دون أى ملل بل واصل بحثه يوما بعد يوم وكان يشعر بأن هذا واجبا ، يتناوله كل صباح كما يتناول النجار فارتة ويساعده فى ذلك جروول .

وقد حضر كثيرون أمام مسيو هافيلان وادعى كلا منهم أنه صامويل أوار بن أندرو المتوفى ولكن كان يتضح كذبهم .

ساعت صحة مسيو هائيللا في خريف سنة ١٨٧١ وأصابه
رق ودوار . وقد حدث في أحد أيام الشتاء الأولى ، وقد أقاموا
في نيس ، في مغنى أوليفير - أن جلست هيلين في الردهة تقرأ
قصة ولكنها رأت زوجها داخلا فما لبثت أن صاحت خائفة :
— عيناك ، أنظر إليهما ، هناك ، في المرأة !
لقد تحولت عينا مسيو هائيلان الزرقاوان إلى سوداوان
وانطبق فمه ، وغرب منظره .. ثم تتم :
— سيأتى ، سام ، سام أوار .

٤

ذهبوا ليقضوا ختام الشتاء في پاری . وكان فناء المنزل ينقص
بالصناديق والحقائب . ووقفت السيدة جروول تجمل نظرها
اليأس . وقد ارتدت ثوبا هنديا ، وأحيط وجهها بهالة من
البخار ، وتدثرت بحمرلة . وهي تضع بطاقات الطرود كل في
مكانه منفذة في ذلك أوامر الوصيفة التي وقفت تلقيها لها من
طرف شفتها في حين تلتفت وتلقى بأوامرها إلى هؤلاء الذين
يرعون الجياد .

رمت هيلين بمعطف السفر إلى مقعد . فأخذه مسيوها فيلان
وأطبقه بعناية ولم تطق صبرا فأخذت تعزف النشيد التركي على
زجاج النافذة . وبدأت قبة الأنثاليد لامعة تحت سماء ملبدة
بالضباب . واكتسبت الأشياء المجاورة لونا أخضر . وهناشعرت
هيلين بملل فدخلت إلى غرفتها .

أعلن جروول قدوم مسيو فيليردى سيساك .. أتى رجل الأعمال
مسرا ليحي صهره ويقبل ابنته . وكانت ملابسه مقفلة بالأزار
حتى عنقة . أما قبعتها التي حملت آثار التكسير ، فلقد عصت عن

أن تخضع لكى النار ، فاستعاض عن ذلك بيلها بالماء . وقد تحايل على شعره الاثيت الثائر فتناه مرة أخرى ! أما هذا مسيو فيلير فقد كانت كعوبه تكونان شكلا منحرفا ويميلان إلى ناحية دون أخرى حتى أنه أصبح مجبرا على السير كعصفور الكنارى لكى يمكنه أن يهتدى إلى خط عمودى .

لم يصادف مسيو هاثيلان ضيفه مسيو فيلير وكم آلمت الأول كلمات الأخير « عزيزى الجزائرى ، صهرى العظيم ... » وأخذ يتكلم عن أعماله وعن الدهر قد جهم له وجهه . ولما لم يسأله مسيو هاثيلان عن أعماله واين كان . صاح :
— وعلى ذكرى هذا ، لا اخفى عنك أننى اجتزت أوقاتا عصية . وكأفت ما يمكن أن يسموه أزمة .

لم يمكنه أن يخفى عن مسيو هاثيلان مصائبه . وقد تتبعه أربعة أعوام فى طلب المال . أرسل اليه يطلب مالا بالانطاد ، ثم بواسطة تاجر طيور ، وبالكتابة فى جريدة الديلى تلغراف وقد أقتنع مسيو هاثيلان فى أول مرة . ولكنه بعد ذلك لم يكن ليغنى بالرد عليه . وقد توجه مسيو فيلير إلى مسيو س . سيمسوز المالى بشارع النصر واستعمل أسم صهره المحترم والمحجوب هنالك

ليقترض مبلغاً من المال . وهذا ما جعل مسيو هاويلان يحق عليه
وأمام هذا السكون لم يبدأ من أن يصارح صهره بغيته .
فقال أنه يشتغل بمشروع خطير .

وإذا ما فتح هذا الباب حتى ضرب نخذه بيديه وتنفس
طويلاً ثم عاد إلى حديثه وقد صوب إلى الطنف نظرة ناپليونية !
— إن هذا المشروع سيجي . في وقت الحاجة إليه . فهو عبارة
عن مصرف للعمال مؤسس على قواعد وأنظمة حديثة . في هذا
العصر الذي ابتدأت طبقات العمال تحس حاجتها إلى الاقتصاد .
إن هذا المصرف سينبه العمال إلى الخطر الذي يهدد المجتمع من
جرائم إسرافهم . سوف يبعث في الطبقات الدنيا ، طبقات المياومة ،
روح الاقتصاد وهذا ماحدى بالحكومة السابقة أن تدعو إلى
تأسيس مصلحة من هذا النوع . يجب أن نبداً .

في هته اللحظة رأى مسيو فيلير دى سيساك بريق قبعة
الأثرية في الشمس التي شأت الطبيعة ألا تقع إلا على قبعة في
حين خلت الردهة منه بل كل المنزل . أضاف بنشاط - ولنبدأ
سريعاً - ثم سأل بعد ذلك إذا كان مسيو هاويلان يود أن يعرف
شيئاً من قوانين مصرف العمال ؟

فأجاب الأخير : - كلا !

كان مسيو فيلير يريد أن يعطى محدثه فكرة عامة عن نظام المصرف ، وقد ظن أن صهره العظيم سوف يعطيه نصائح غالية .
وأخيرا لماذا لا يصارحه . أن هذا العمل في حاجة إلى رؤوس أموال كبيرة . وهو يود أن يهرع مسيو هاثيلان ليكون من أوائل المساهمين في مصرف العمال .

إلتزم السكون وقرع مسيو هاثيلان الجرس ينادى خادمه الذى جاء يعرج . قال له .

— جرول . أطفأ هذا السيکار .

كان هذا سيکارا حقيرا ثمنه صولدين فى التزع الأخير ، وضعه مسيو فيلير دى سيساك عند قدميه على حافة طنف .

ثم واجه مسيو هاثيلان محدثه مسيو فيلير وقال :

— لن أسديك نصحا لأنك لاتعرفنى سمعك . ولن أعطيك مالا لأنك لاترده . أنك لست رجلا ظريفا . أرجو ألا أراك هنا مرة ثانية ، هذا وتستطيع أن ترى ابتك وقتما تريد . ثم خرج . كانت هذه صفقة مؤلة للمسيو فيلير الذى شعر بانتهاء حياته

ولكنه وجد لديه الشجاعة الكافية لأن يضم إليه ابنته وأن يلقى إليها بترهاته . وقد استقبلته هي بحنان الأطفال .

أن في أخلاق هذا الرجل شيء من اللين والتساهل شبيه بكسل ابنته . وب نظرة واحدة تلقىها امرأة ، رأت هيلين قميص والدها العتيق . الذى انتثرت خيوطه عند الأطراف ، وسترته التى ابيض لونها . وقبعته التعسة وقذارة هيأته ..

وكانه فهم ما يحول فى خاطرها ، فابتسم المسكين واعتذر لأنه أهمل قيافته لما تقدم فى السن . سأها عما إذا كانت سعيدة . ونصحها أن تحب زوجها . ثم ، بعد أن قبلها بحنان ، نزل الدرج بخفة وقد أعشت عيناه ، واستقامت ذقنه ، وغاصت رأسه تحت قبعته الخالدة ..

وقد لاح لهيلين أن والدها غضب من زوجها .. فتسهم عقلها نحو الأخير بأفكار سيئة مجرد التلبيح الذى أمكنها أن تفهم منه دون أن تتلقى شرحا ..

ولما كانت نفسها تفيض عطفًا وحنانًا ، فقد وجهت ذلك نحو ابن أخت زوجها جورج الذى كان جميلًا ظريفًا .. ولد جورج هايلان فى أفرانش ونشأ على الديانة الكاثوليكية

وسط المستعمرة الانكليزية الصغيرة القائمة في هذه المدينة
وقد فقد أبويه وألحقه عمه - الوصى عليه بالقسم الخارجى بكلي
ستانسلاس . وكانت تبدى له هيلين أظرف الملاحظات وأغيا
النصائح ليصير أسمى مخلوق .

وقد دعتة يترك فروضه هذا المساء ليذهب إلى الممثل .
ولقد أصبحت أيامها مريرة ، واعتراها الملل ، فهي تبكى
وتتمنى أن تعيش ولو في أحقر كوخ بجانب والدها .
هرعت خفية ، إلى رجل الاعمال ، الذى يقطن فى شارع
روما فى الطابق الرابع من منزل حديث البناء ، وقد انتعشت
من هذا الشوط الذى قطعتة فى العربة ، ولكنها كانت ترتجف
وأرخت نقابها كأنها ذاهبة إلى موعد غرامى !

وكان أثاث والدها أشبه شئ بأثاث طفل صغير . فترى
غلاينه هنا وهناك ، وسط الأوراق المبعثرة على المناضد . وانعد
النظام فى هته الغرفة . قبلت هيلين والدها على خديه ، ودارت
بنظرها فى زاوية الغرفة ، وحينما لمحت بعض أشياء لسيدة منهم
مظلة وبعض أزهار البنفسج ، تظاهرت بأنها لم تر شيئاً . وضمت
شفيتها حذراً من الضحك ولكن عيناها كانت تضحك . جلس

والدها أمامها لا ينطق من الحب والاعجاب .
عبثت بالإوراق التي أمامها ، وأكلت من الحلوى ماشاءت ،
وشربت وضحكت ثم تأهبت للرحيل
أصلح الوالد طاقته التي اختل نظامها من التقييل ثم همس
في أذنها :

— أحي زوجك ، أحيه من كل قلبك
وما أن استوت في العربة ، حتى تخيلت زوجها أمامها مضجعا
وقد بدت عيناه الباهتان ، وخداه المشربان حمرة ، واللذان
يشبهان قطعة اللحم التي لم يتقن طهيها ، وقد ابتسمت دلالة على
الاستهجان ، وهنا تعود بها الذاكرة الى صورة قديمة في طوايا
نفسها ، في ذلك العالم القديم المليء بذكرياته ،
ها هو ذا وجه كاد أن يصبح منسياً . . ولكنه محبوب .
عزيز لديها . . وجه غائب لم يؤوب ؟ أنه مائل في ذاكرتها ،
لقد ذهب بعيدا ، بعيدا جدا ، دون أن يؤوب البتة ؟
كانت يوما جائمة على ركبتيها ، تنظر من زجاج النافذة بملل وإذا
بوصيفتها تدفع لها بطاقة شخص يطلب مقابلتها . . وما أن نظرت
إليها حتى نهضت بسرعة وأصلحت خصلات شعرها وهندامها ثم
دخلت إلى ردهة الاستقبال . وقد تناولت رقبتها كالأوزة الكبيرة .

٥

وقف رينيه لونها أمامها وقد أصفر لونه عن ذي بدء .
وامتلاء خديه ، ولمعت عيناه ولكن في شيء من الألم . وبدأت
عليه آثار الحمى التي أصيب بها في الأقطار الحارة . واحتفظ
بنظراته التي فيها شيء من التحدى والجرأة . وفيه الكبير الذي يدل
على العطف قالت له :

— هأنت ترى أن الأرض صغيرة . وأن الإنسان في مكنته
أن يطوفها . لست بالمشدوهة لأنتى رأيتك ثانيا ولكنى سعيدة .
كان كل قد اعتزل عن الآخر مدة كبيرة من الزمن وعاش
كل حياة بجهولة عن الآخر . لذا فأنهما يجدان في التعارف من
جديد . وقد بدأت هي بواجبها كصاحبة المنزل ثم تحركت بدافع
خفى فألقت إليه الكلمة الأولى التي مصدرها القلب :

— لقد كنا نفكر فيك لما

هنا انطلق رينيه الى الذكريات القديمة ، فتكلم عن أكواب
الشاي في شارع نيث دي بيت شامب ، ونزه ميدون ؛ الأتواب
الطبيعية الحمراء والبيضاء ، صديرية مسيو فيليير .

سألته عما إذا كان يضع الضفادع فى جيوبه ؟
ومضت برهة من الزمن . انتقل بعدها إلى سرد رحلاته
وما كان من أمرها . وهى تحمق فيه بعينها الجملتين . وسألته عما
سيفعله . فقال أنه تعب من جراح الخدمة الطبية العسكرية
وسيستقيل ، ويشخص إلى الضياع حيث يتمتع بالطبيعة ويمتنع
حرقة الطب . فأذا قدر له أن يلتقى يوماً بفتاة ريفية تغنى بترية
صغار الدجاج تحت رعايته ، فسيقترن بها . قالت بجرارة :
— آه ! تريد الزواج ؟

ولكنها فهمت من أجابته أنه لا يبنى ذلك ، لأن قلبه حزين
وبه جرح لم ينظم . وقد تكون ذكرى مؤلمة !

عاد جورج من الكلية فرمى بنفسه بين الاثنين حاملاً كتبه
المدرسية ونظر إلى الضيف الجديد نظراته البريئة وابتدأ فى
اللعب ، فلم تطرده هيلين ولكنها أمرته أن يلزم السكون
ويؤدى فروضه . . وعاد الطبيب يقص أقصوصاته . فأطبق
الولد قاموسه محدثاً ضخمة كبيرة ، وأخذ يسحق مقلته بأسنانه
ورفع رأسه حينما سمعه يقص قصة حيوانات البحر الحية التى
أكلها بحار فوق سفينته .

جاءت الوصيفة تقول أن سيدها ، الذى يتالم ، يرجو أن يرى
السيدة قرية منه .

كانت غرفة مسيو هاثيلان كبيرة وملائی بالأشياء الغريبة
فى أوضاع خاصة . هناك منضدة مكسوة الزجاج صفت عليها
الزجاجات وعليها العناوين ، تاج ، جوردين ، سيموئس ،
أورتاس ، تير ، أهيو ، الخ . . ويحتفظ بنصف زجاجة من مياه
الأنهار التى عبرها ثم منضدة زجاجية أخرى ، تحوى نماذج لكل
أنواع الرخام الموجودة فى العالم . . وهناك دولاب هو مجموعة
ذكریات تاريخية . يحوى أحجار من سجن تاس^(١) ، من منزل
شاكسير الذى ولد فيه ، من كوخ جان دارك ، من مقبرة
هيلوئيس^(٢) ، بعض أوراق من شجرة الصفصاف الباكية
لسانت هيلين ، قطعة من أشعار لاسنير فى السجن الشهير
بالكونسيرج ، صندوق ساعة سرق من التويلرى سنة ١٨٤٨ ،

(١) شاعر أيتالى كبير ولد فى سورت سنة (١٥٤٤ - ١٥٩٥)

(٢) هى حفيدة فلبرت العالم الكبير فى قوانین السكتيه ، ولدت فى بارى سنة
(١٦١٤ - ١١٠١) واشتهرت بجلاتها يبير أبلارد للفيلسوف والمبرز فى
علم اللاهيات وقد اشتهر أيضا بحوادثه المفجعة .

ومشط كانت تملكه الأنسة راشيل^(١)، وزجاجة تحوى خصلة من الشعر لجوزيف سميث نبي المورمون^(٢)، هذا غير التذكارات الأخرى، وفي الغرفة مناضد كبيرة من الخشب الأبيض، وغيرها من صنع بعض الفنانين والكل مغطى بأغبر الأنسجة . وكانت تتصاعد من الغرفة رائحة العقاقير القوية . أما مسيو هاثيلان فقد استلقى على مقعد طويل قريبا من مضجعه الحديدي وألقى غطاء من أغطية السفر على قدميه في حين اشربت ديباجته حمرة، واطلعت عيناه . أخذ يدي زوجته بحنان هؤلاء القوم الذين يشعرون بأن كل ما لهم قد ولى . أسر لها أنه يحبها ، وأنه يشعر من جبتها بالامتنان ثم أنه يشعر بخاطر المرض الذي يرجو الشفاء منه . أنه يثق بدواءه الشافي الذي يجيد تحضيره جرول . وكان ينقطع عن الحديث بسبب الدوار الذي يعتريه . استأنف الحديث : يجب أن اعترف لك يا هيلين أنه قد مرت على دقائق أخطأت فيها . وهذا يرجع لمرضى . إن كل ما عملته في هذه الدقائق يجب ان تطوى صفحته .

(١) ممثلة فريدة نبقت في فن التراجيدى . ولدت في سويسرا (١٨٢٠ - ١٨٥٨)

(٢) طائفة في الولايات للنعدة تكون ولاية صغيرة على شاطئ البحيرة الملحة

ومن حسن الحظ أن تكون أعمالي منظمة . وقد أودعت الوصية عند مسجل العقود . . . وهنا قال لها أنه يترك لها حق الارتفاع بثروته التي يجب أن تؤول إلى جورج هافيلان . وترك لخادمه جرول جزءا وقد أخبره بذلك . ضغط على يدي زوجته من جديد ونظر إليها نظرتة الغريبة التي تشع ألما ثم رجاها أن تصغى إلى ما يأتي : -

— إذا ما انتقلت أنا من هذا العالم وأردت أنت أن تسدى إلى جيلا أبحي ، يا عزيزتي هيلين ، أبحي عن صامويل أوار واذكري له شعوري ورغباتي الأخيرة وأستحلفك بأسم سيدنا المسيح الذي سيبعث الأموات إلى حياة جديدة ، ألا تهمل أعطاء سليل دافيد أوار الأخير المبلغ الذي أوصيت به . أنه على قيد الحياة . وقد رأيته في بعض الليالي . أنتى أعرفه لو حضر . سوف يحضر .

شخص المريض يبصره إلى ستارة قائمة تمتد على أحد الابواب ومد يده التي ترتعش وصاح :

— هناك ، هناك ، أمام هذا الباب ، هذا هو ، هذا هو

سام أوارا

هل ترين جيذا هته العلامة التى يحملها فى رقبته ، تحت قميصه
البحرى ، هته هي علامة حمراء ، من أثر جدّه ، الشيخ داوود ...
سام ! سام ! أوه ! يا ألهى !

• سقط على مقعده الطويل ونام نوما خفيفا . لم تعرف هيلين
ماذا تفعل وسدرت بين الأغطية : نادى جرول الذى أبعدّها
بخشونة واستولى على المريض .

وفى المساء إعتراها الأرق ، فرأت على ضوء القمر ، زوجها
ينزل من نافذة غرفته ، وقد التف فى دثار من الصوف ويسير
إلى اليمين قاصدا عينا قريبة من الأسطبل ، ذهل وجهها خلف
زجاج النافذة . وأحست بألم فى جذور شعرها . فلم تقو على
الحركة أو الصياح . رأت جرول يخرج وهو نصف عار من
وكره الذى ينام فيه ، متبعا سيده . رأت زوجها يطيل النظر
إلى قاع البئر ثم رفع رأسه ومد يده كمن يبحث من أى جهة
تجىء الريح . ثم دخل من نافذة غرفته . ورأت جرول يهزمكبيه
ويدخل إلى منامته وارتسمت عليه علامات الشر بأجلى مظاهرها
وظهرت مادام جرول برهة . ولكن هيلين سمعت جرول يضربها
بعد دخولها غرفته . ولقد أصبح مسيو هاثيلان يغط فى نوم

عميق ، يسير ، يتكلم ، يتحرك وهو نائم !

في الغداة وجدت هيلين زوجها ذا نشاط . يعمل في سكون في الكتابة على الأحجار الصغيرة المأخوذة من بعض الآثار الشهيرة . كتب على وريقات عليها أثر كتابة ممحاة . هته الكلمات : كوليذى^(١) ، كاتا كومب^(٢) ، مقبرة سيسليا^(٣) ميتيلا . وكانت عيناه ذوا الزرقة الباهته ، لاتدلان على شيء . ولكن هيلين لم تظن أن بالآ إليه ، فأرادت أن تظل قريبة منه ، ووعدته أن تسهر عليها بنفسها وأن تدعو الأطباء رغما عن أنه لا يريد . ودخل جروول حاملا زجاجة وكوبة . ملاء الكوبة من الشراب

(١) مدرج هائل في روما بديء في بنائه أيام الإمبراطور الروماني فيسبازيان وتم في عصر ولده نيتوس . ويحوى ثمانون صفا حجريا .. وينسج ثمانون ألف من النظارة . وكان يجري فيه قتال الأبطال والحيوانات وكان الرومانيون يقبلون على هذه الرياضة الدموية ويحضرها الإمبراطور وعمر المقاتلون أمامه . وم يصبحون « السلام بأقصر ، أن الذبن سيمونون يحبونك »

(٢) مقابر تحت الأرض ويطلق عليها جبانات المغابر والشهيرة منها ، وهي في الأصل كهف يستخرج منها حجر البناء في روما ونابل وسراكيورو بارى . وقد اشتهرت الأولى لأنها استعملت ملجأ للصاري في عصر اضطهاد النصرانية . وقد وجد فيها نقوش ورسوم آية في الفن وغاية في الأهمية بالنسبة لتاريخ النصرانية .

(٣) لعله يريد ميتيلوس الروماني الذي ضرب القرطاجيين في سيسليا .

سم قدمه إلى سيده وهو يحرق في هيلين وقد صوب إليها نظرات
هى غاية في القحة والتحدى حتى انصبغت بلون أرجوانى .

وما أن شرب مسيو هافيلان الدواء حتى شعر الدوخة
وشلت أعصابه . واتسعت حدقيه بشكل غير مألوف . ومنذ
ذلك اليوم وهيلين تحس أمرا جديدا . وساورها القلق . وذات
مساء ، نحو الخامسة ، لاحظت آثار حذاء قد قويت نعلاه بالحديد
على بساط غرفتها . وكان الأثر يدل على أن صاحبه قطع أنحاء
الغرفة في خط معوج من الباب الخارجى إلى غرفة الزينة . وهذه
الآثار خفيفة لم تكن لتراها لولا ضوء الشمس ، التى أضأت
فى هذه اللحظة فأظهرت آثار التراب الرمادى على البساط النفيس
وقد ذعرت فنادت وصيفتها وافقدتا غرفة الزينة . ولكن كل
شئ على ما هو . أخذت تجهد نفسها فى تعرف هته الآثار ..
وأتعبها التحقيق دون جدوى .

عاد رينيه لونجمار ، وأخذت هيلين ، التى أتقنت زيتها
كما يريد ، تشكو اليه بؤسها وتعس حياتها وآلام زوجها . وقد
شعرت بعاطفة الحب نحوه وتمنت لو تهوى على هذا الصدر
الكبير الحار فبكى وتستعطف . فى حين ظل رينيه صامتا أمامها .

وهو يجتهد ألا يضيع ثقتها فيه ، إنه يحبها باحترام . لقد كانت
شعر حياته الصيانية .

وقد عادت له أخلاقه القديمة .

فى نفسه مكان مرتفع عظيم لمخلوق سامى . لم يجد من يستحق
هذا المكان إلا هيلين ، وهته كانت تعب ، ضعيفة ، منغصة من
هذا الزواج الخالى من الحب . تلتزم جادة العقل ، وتمثل فيها
الحشمة والوقار أمامه .

حدثته عن مرض زوجها . هز رينيه رأسه ولم يعرف ماذا
يقول . ولكن أبدى احتمال سوء المعالجة . ولم يشخص الجراح
المساعد المرض حسب سيره الطبيعى ، وكما شرحوا له عوارضه .
وقد عزى اتساع الحدقتين إلى الأسراف فى تعاطى الدواء
المركب من النبات المسمى بحشيشة الحمرة . وكان يجب عليه
لمعالجة داء المفاصل أن يستعمل ملح كلورات هذا النبات . ثم
شرح لها رينيه خطأ هته المعالجة . ولنا جددت عزمها على
استدعاء الأطباء . والأشراف على المريض بنفسها .

وفى الغداة وجدته فى الهري ينعم قطعة من الخشب بعناية
كبيرة ، فقد كان نجاراً ماهراً كما هو كيتائى . لما أن رآته هادئاً ،

يتمتع بالراحة ، خيل لها أنها حاملة ، وقد حدثها عن الطاهي ،
الذي طرده من خدمته لأنه سارق بعد أن اكتشف جرمه
جروول . وكان يضع آله التي يستعملها في تنعيم الخشب (الفارة)
على طاولة النجارة ثم يزيل برشاقة النشارة التي تعلق بأطراف
معطف زوجته الذي ترتديه في الصباح . وقد تجلت عيناه جيلتان
يحتفظان بلونهما الطبيعي .

فكرت في رينيه ونشاطه وقدرته على بعث السرور في
النفس . فهو كالكتاب الذي أحكت عباراته ، ثم نفسه المليئة
بروح الشباب وقوته . وقد امتلأ قلبها كراهية وهي تتأمل هذا
الشيخ . . جاء جروول في الساعة المعتادة يحمل الدواء لسيدة .
ولما رأى هيلين في هذا المكان الذي لم تمسه قدمها من قبل ،
دحرج عينيه ، عينا القطعة الزائغة تتجلى فيها الحقد الكمين . ثم .
ككل المرات عندما ابتدأ مسيو هايلان يتذوق شرابه ،
رمقها جروول بنظراته الوقحة ، وشفاته تتحركان عن غيظ .
مدت ذراعها إلى الأمام كيما تنتزع هته الكوبة من بين شفتي
الشيخ ولكن جروول همس في أذنها بلهجة سوقية آمرة :

— لا تفعل ذلك يا بنية !

فسكنت خجلة وقد تحولت بيضاء كالثلج . شرب مسيو
هافيلان الدواء وجفف شفتاه . ونزلت التعسة الدرج وهي
تتخبط وتضرب أخماسا لأسداس . . وقد أخجلها جنبها ،
وعولت على عدم الظهور أمام زوجها ولكنها علمت في المساء
من وصيفتها بأنه أصيب بألم شديد . وقد خلد إلى السكون حتى
أنها ظنته قد قضى . . فتهدت عن قلب مكوم . . وقالت :
« أنه لا يزال حيا ، لا يزال في الوقت فسحة ، فلا تكلم . .
لن أكون شريكة في الجريمة لهذا . . . »

وفي احتياج شعورها هذا ، تناولت عشاها ، ثم استسلمت
للكرى ، وهي تحلم في رينيه الذى ملك عليها مشاعرها واستحوذ
على لبها ونهاها . وكانت رأسها قد اشتعلت واصطكت أسنانها ،
ثم لم تدر بعد ذلك ما الذى آلت اليه . رأت وجوها مخيفة تمر
بها ولم يك ثمة وقت يسمح بتعرفها . أين هي إذا ؟ وماذا يريد
منها هذا الجمهور الغريب الذى ارتدى جميع أنواع أردية الملاحى ؟
وشعرت بحر شديد يضايقها . هذا هو قط احمر يتغير لونه .
ضمت ذراعاها وثنت ركباتها . هاهي راهبة قد أتت تضع عليها

أغطية . ولكن لم هذا ؟ ثم هؤلاء اثنين أو ثلاث يمنعونها من الخروج

كان عليها أن تعمل شيئا ثقيلا . ولكنها لم تعلم شيئا أكثر من هذا . . . صاحت . « أوه ! رأسي ! رأسي المسكينة ! ، أحست بألم في مخها فهي تبحث عن حائط ، حائط من حديد تسحق به هذا المخ وتستريح . « أوه ! يجب أن تسرع فتعمل مصرفا لتصريف الماء الذي يغلي هناك . قال صوت مجهول : « الجليد ! الجليد ! أيضاً ، ولكنها لم تر جليداً ، وقد ضلت كما كانت وسط الرمال المشتعلة وعلى شاطئ من النحاس الذائب . صاحت : « رينيه ! رينيه ! خذني إلى غابات ميدون ! هل نسيت وقت أن كنت تصنع لي باقات الورد ؟ ، ثم هي تغفو فتحلم أنها عادت صغيرة تسمع الأقاويص وتعاليم مسيحية لسيدة من سيدات الدير : « لا يمكن ، استذكار دروسى ، يا سيدتى ، أتتى أشعر بألم في رأسي . إذهبي بي إلى المنزل . أريد رؤية والدى . . . »

وفي ذات يوم ، كانت فى وضعها وقد خارت قواها ، وشعرت بجوع . فعلبت من المدينة التى تسهر عليها ، أنها قد اجتازت مرضا خطيرا استمر ثلاثة أسابيع وأنها أُنقذت . وبعد

بجهود عظيم بذلته في الرجوع إلى ذكرياتها تسألت :- وزوجى ؟
فقال المتدنية ألا تقلق فهو سائر إلى التحسن وقد انتعشت
هيلين ونقعت ولكنها لاتزال تحس آلام الرأس وفقدان
الذاكرة اللذان يعقبان عادة الحمى العقلية . ولم يكن يشغلها إلا .
شعور واحد هو خوفها من رؤية زوجها . وقد دق قلبها حينما
سمعت أن مسيو هاثيلان قد نقه وسيحضر ليراها فى غرفتها . نظر
إليها بعطف وحنان . وبها لوا عجب حبه . وللبره الأولى ، ارتسمت
على هذا الوجه الغليظ ابتسامة . وقد كانت حقا ابتسامة داخلية
تعبّر عن إخلاص . الأمر الذى جعلها تعطف عليه فبكت
وداعبت الشيخ مداعبة الأطفال . لفت ذراعها حول عنقه
ولكنه كان قد استقام فبذلت مجهودا وإذا ساقها فكرها إلى
جرول ودواؤه . فأخذت يدا زوجها وقالت بصوت يفيض حنانا .
— إذا كنت تحبى ، إذا كنت تريد أن تبعد عن كلانا شبح
الموت المخيف ، أطلب منك أن تبعد خادمك اليوم وإلى الأبد
أن مافعله . . . هذا مريع . . . لا يمكننى أن أقوله . . . أبعد !
أبعد ! ، - ثم اختفت وهى غارقة فى بحر من الدموع .

وتذكر مسيو هاثيلان أن هيلين كانت تمقت هذا الخادم من

قبل . ولم شكته إليه فظن أن ذلك دون أى سبب ، ولكنه رأى
الآن أنه من الضروري أن يضحى خادمة في سبيلها

أمر أن يؤتى إليه بجروول في المعتمل حيث قال له :

— جروول ، يجب أن تفصل عنا . أنتى راض عنك ، وقد
كنت أود أن تظل إلى جانبي حتى وفاتى ، ولكن أصبح وجودك
في هذا المنزل محالا لأسباب لاحل لذكرها ! لن أغير شيئا من
جهة مكافأتك . يجب أن تغادر المنزل يوم الجمعة وسأقوم بأود
حياتك وسوف أعتنى بامرأتك التى أبقياها فى خدمتى وأرجو أن
أوفق فى العثور على صامويل أوار .

ليس عندى ما أقوله لك أكثر من هذا .

لم يجب جروول فأنحنى وخرج .

٦

إذا .. أبعد جروول يوم الجمعة . فى الغداة شعر مسيو هاڤيلان بتحسن لم يشعربه منذ شهور كثيرة . فقام فى هذا اليوم بنزهة فى غابات بولونيا تصحبه هيلين . التى تعافت .

سبب لهما دوى العربة ومداعبة الهواء تعباً لذيذاً وقد تجلت على هيلين مظاهره . أحست فى هذه اللحظة بقلها الضعيف يخفق بحب زوجها العجوز . وتحت تأثير المرض ، فى لحظة مريضة ، أحبت زوجها الجالس بجانبها تغوص سيقانهم تحت فراغ واحد .

أخذت تمتع نظرها بالأشجار ، مصاييح الشارع ، المارة التى تخلفهم العربة ، منازل شارع «شامب إليس» ، بحوانيتها التى تصنع فيها العربات والممرات المفروشه بالرمل . حيث جثمت الخيل تحت الأقواس ، فى الظلال ، وأمسك السائسين الجائمين بقيادها . ثم لاح قوس النصر مرتدياً حلته الدائريه من أنوار الطبيعة . وإلى الشمال الشارع الذى يؤدى إلى الغابات ، وقد ظهرت على ناصيته الحدائق الانكليزية . . وإلى اليمين كانت الفرسان تخطر

فى الممرات الرملية ، تسطع عليها شمس الربيع الفاخرة . وانتشر غبار أثارته عربة مقفلة ذات أربع مقاعد .. هذه هى فتاة شقراء جميلة تقود عربتها وتثير زوبعة فى الشارع . وجلس خلفها سائس ضامأ ذراعيه إلى صدره .. وهب نسيم الغابات اللطيف على العربة . وأخذت العربات تتلى ، وقد أطلت منها وجوه مزودة بأنواع المساحيق ، وكانت ترتفع التحيات من عربة إلى أخرى . ويقترب الفرسان وهم يتسمون من السيدات اللاتى احتجن تحت غطاء عرباتهن المظلمة . ومر من الطريق المقابل عرس لبعض العمال سائرين على أقدامهم . وجدت هيلين أن زوجها على غلظة ليست مقبولة . لقد عهدته رجلا هادئا رزينا .. أن سكون هذا الرجل ، وهدوء وجهه ، وبساطة أفكاره ، كل هذا قد حاز أعجابها الآن . أنها تجله وتبجله منذ أن أنقذته . ولكنها من جهة أخرى لاتزال تتذوق السعادة بشيء من الضعف والتعب الذى يتلاشى . كانت تنكش فى سرور الهرة التى تحس البرد .

غادروا العربة قريبا من الشلال ، إلى حيث دخلوا مقهى كما يتناولوا شيئا من اللبن . إلى يمينها وشمالها ، كانت الموائد

تضم إلى جوانبها أغمار الشيوخ يهمسون وقد بدت نبراتهم نسائية . وجلس أمامها ثلاث شبان يتبادلون الحديث ، بصوت جلي . ولم تعرف من هم هؤلاء الجالسين أمامها . ولكنها عرفت هذا الذى أولاها ظهره . وبالرغم من أن الخادم وقف حائلا بينهما إلا أنها عرفت من نظرة واحدة إلى ظهره . شعرت بآلام شديدة فى المعدة ، وجفاف فى حلقها ، والتهاب خديها . ولكنها فى الوقت الذى تتألم فيه تشعر بفرح .

كان هذا الجالس قريبا . والذى سبب لها هته الآلام هو لونجمار ولم يك يدرك أنها على مقربة منه . لهذا فهو منهمك فى حديثه . وقد ضمنه آرائه الغريبة كماداته . قال لأصدقائه :

— ان النطاسى الشريف الوحيد الذى أجله ، هو بينيل . أنه لم يعط قط دواء لزبائنه ، خوفا من تعيهم . أو أن يعرقل سير المرض . وقد ابتهج عند ما أمكنه أن يشفى بطريقته جرحا امتنع عن مداواته بالعقاقير . وأمام هذا النجاح المباهر الذى حازه فى هذا الجرح . ظل نديها ، محترماً . فيا له من طبيب عظيم ! تلاشى صوت رينه بين صوت الضحك الذى ارتفع وقتئذ . وزاد اللفظ . واستمر الثلاثة فى الحديث . أما هيلين فقد أحست

طراوة في حلقها ، وامتلات آذانها بالأصوات . ولم تكن عيناها
لترى شيئا آخر . وتندى جبينها بالعرق . ولما أن رآها زوجها
على هذا الحال سألتها عما إذا كانت تعبئة وهل تريد أن تعاود
الدخول ، ولكنها لم تكذب تلتفت إليه حتى وجدته في حالة
غريبة . فقد تقلص وجهه ، وبهتت عيناها ، فتأهبوا للرحيل ، وهنا
رآهم لو نجمار ، وقد تبادلا نظرات قوية كادت أن تجذب كلا
نحو الآخر .

في الغداة ، لم يتمكن الشيخ من مغادرة غرفته ، وظهرت
أعراض المرض المتقطع مرة أخرى . وبعد بضعة أيام كانت
حالته تنذر بالخطر ، وفي صباح الجمعة دعت هيلين طبيباً . وفي
هذا اليوم كانت هيئة المريض مخيفة . تضخمت العروق .
وخرجت العينان من تجويفهما . وهذى هذيانا غريباً . وأوصى
الدكتور هرسان ، الذي كان يعيده دواءً ضد التشنج ولكن لم
يفد شيئاً . فقد شخص جرحاً واسعاً عميقاً وسط الأعصاب .
وقد خاف أن تحدث الخاتمة المفزعة بعد حضوره توا . فصرح
أن الحالة سيئة وطلب عقد مجمع من الأطباء في المساء للمشاورة .
في هذه اللحظة أتم جروول حزم أمتعته بواسطة امرأته ، ثم

استقل مركبة للكرا تاركا القصر ، تنفيذا للأمر الذى تلقاه ..
أقامت هيلين قريبا من المريض . مستلقية بهيئة مخيفة . ولم
تجسر أن تنظر إليه ، ثم ، على حين غرة . حملت فيه بشكل
غريب ، فحسته بكل عينيها وأرادت أن تراه ، تراه إلى النهاية
حتى المات .

كان التعس يتصارع بين خادمين ، الذين بذلا مجهودا كبيرا
فى أبقائه تحت الفراش . ذكر امرأته وصامويل أوار . وبدى
صوته ، الذى تغيرت نغماته ، جديدا ، مرعبا . ولفظ أسم هيلين
بنغمة مهدجة تفيض حنانا . وصرخ صرخة مرعبة ، ثم ضحك
بعتوه ولكنه كان مفجعا . حتى أن الموازنة لمتعذرة . فأن أرجح
الناس عقلا لا يمكنه أن يقارن بين ألفاظ الحنان والحب
بتلك التى قصد بها التهم المخيف . ولا تسلم عن الرعب
الذى سببه هذا المنظر لهيلين . فقد أحست كما لو أن سلوكا من
المعدن المحمى فى النار تسرى من قفاها إلى عقبها . وأن أحشاها
تمزق .. أصغت إلى صوت زوجها بانتباه .. أن عذابها يزيد
لأنها لا تستطيع أن تميز نبراتة . ولو أنها سمعته فى هذه اللحظة
يصب اللعنات بلسانه وأصبعه لحف عذابها .

فى العاشرة مساء اجتمع حوله الاطباء هرسان ، جيرار ،
وبلدك وقد قام بحركة عظيمة من كل أعصابه . ثم هدأ .

وكانت هياته كالنائم . وقد ابتدأت هيلين تحس عذابا جديدا ،
والما شديداً ، بل أفضع الآلام . لقد أحست أنها ستفقد الصداقة
والأخلاص كامنين فى شخص هذا الرجل الذى أحبها . شعرت
بالأسى يطرُق قلبها من أجله . ذلك الأسى الذى يجعلها خائفة
كالخسيسة المنافقة . أفليست هى التى ؟ .

استمر تطور المرض ، وأصبح المريض فى حالة تضايق منها
من يقومون بخدمته - إذا استثنينا الأطباء - وتدلّت يداه
العظمتان فوق الغطاء فى حالة برودة وضعف . أمسك الطبيب
هرسان قبضة المريض اليسرى وقد لاحظ ضعف النبض ،
وبرودة الأطراف . تدلى الأنف . ففرت العينان اللتان كان
يديرهما حوله يريد أن يرى ويعرف كل ما حوله مرة أخرى .
ثم أضجع رأسه إلى الخلف وصرخ ثلاثا وخلد إلى السكون .
وأعلن الطبيب هرسان أن كل شىء قد انتهى .

سمعت هيلين ، التى كانت إلى اليمين تتوجع ، بهذا النزغ
الآخر . أنه مات اشعرت أن الأرض قد فتحت تحتها ، وأنها

قد سحقت . وتمنت لو قد قضت هي الأخرى . يا ليتها لم تجيء
هذا العالم . لم تساعدنا قواها نفرت مغشياً عليها .
التقى الأطباء جيران وبلدك في الغرفة الخارجية بسيد قصير
ذالحية كثة وعوينات من الصدف . . وضع يده في أيديهم
وقال بصوت حزين :

« أيها السادة ، لقد كانت مجهوداتكم عظيمة ، إن علم البشر
مهما تقدم فإنه محدود . وأن أمراء العلم لا يستطيعوا دائماً أن
يسيطروا على الطبيعة . أتني ممن يحملون شرف معرفة الفقيه .
سأوضح لكم الأمر . مسيو فيلير دى سيساك لن ينسى ما بذلتموه
من جهد في سبيل إنقاذ صهره العظيم .

ثم ذهب إلى المكتب بخطائفة بطيئة ليتناول أكلة خفيفة .
ذهبت مادام جرول الغارقة في دموعها وأحزانها إلى غرفتها
حيث أخذت تصيح بصوت يشبه الدجاجة تنادى أبنائها .

أستدعى الطبيب هرسان إلى مادام هافيلان التي تستدعى
حالتها بعض العناية . لما رأت هذا الرجل الكبير الأسود الذي
لم تعرفه يلج غرفتها تولاها رعب شديد سبب لها هذياناً فضمت
ذراعها وصاحت :

— لست أنا ! أوكد لك أنه لست أنا !

V

نشط مسيو فيلير كثيراً بعد موت صهره . كان يُرى في ثيابه السوداء ، ذى الدلالة على الحداد ، مع ابن أخت المتوفى ، وكان يسير ببطأ في الشوارع الخارجية لكي يصل إلى مقبرة موتبارناس حيث اشترى مسيو هاثيلان له ولزوجته قطعة كبيرة لكي تكون مدفن لهما .

ولما كان مسيو فيلير لم يتعود إلا نادراً على أن يصحو من نومه في الصباح فقد بدى باهت اللون ، يحمل وجهه آثار الأرق . واحمرت عيناه وانتفخت مقلته و كان منظرهما من خلف العوينات ذات الأصداف يكسب وجهه هيئة التعب والحزن وقد ساعده ثقل جسمه على حفظ توازنه في السير . فهو يسير متاثقاً . ولما كانت الثروة قد غادت إليه من هذا الطريق الغريب . فقد تغيرت قبعته التي علقها في قصر هاثيلان . وكانت الجديدة زاهية ذات حلية يضاء ناصعة . أما حذاء مسيو فيلير فلم يعد يحدث هته الحركة القديمة المعتادة . بل كان يخرج كل خطوة صوتاً كما لو كانت تقطنه الأرواح .

أمام البناء الذى شيد على طراز الفريد الثانى عشر ، والذى يرى العمال وهم ينزلون من النعش الخشبي، ويلهثون تعباً . ويصقون فى أيديهم التى التهب من أثر الجبال . وقف مسيو فيلير عديم الحركة يراعى السماء من خلف عويناته بشيء من الروحانية . فكان الناظر اليه يدرك أن أفكاره ليست محصورة إلى أبواب المقبرة البرنزية ، بل أنه يحلق فى قطر أثري حيث أجواء الفلسفة السامية . كما أنه يحلق أيضاً فى عالم الخيال اللانهائى لدرجة أنسته أنه فى عالم الوجود لولا أن سعالا خفيفا ذكره بأنه على قيد الحياة وأن صدره ما زال يخفق بها . ووقف خلفه نفر من الانكليز . أطلقوا شعورهم . على شيء كثير من الضخامة ، يرتدون حلالا أنيقة . ثم رجلان يتهاوسان جانبا وهؤلاء من الذين يختلفون مع مسيو فيلير إلى مائدة واحدة ومن المترددين على منتدى كلبار حيث يتبارون مع مسيو فيلير فى البليارد والدومينو ، كذا جمع العاشية فى إحدى الممرات الخلفية فى جوانب المقبرة يرفلون فى ملابسهم ، والطهاة فى قلنسواتهم ذى الاشرطة ، وكانت السراويل تمتد إلى شيء كثير فوق الأحذية . وبعد دفن الجثة ، تقبل مسيو فيلير العزاء من جمهور المشيعين ،

بهية الرجل الشجاع ، الذى أصابته كارثة ، هلع لها قلبه ، وطار له ، ولكنه يحاول أن يحكم شجاعته على عاطفته ، فهو يشكر الأشخاص الذين جاءوا يؤدون واجبهم الأخير باظهار شعورهم نحو الراحل الكريم . ولقد كان يكرر النظر اليهم لأن أحداً منهم لم يتمكن هو من التعرف عليه . ضغط على يد كل منهم بجلد يعبر عن قوله : « أشكركم ! أشكركم ! سأكون جلدأ ! سأتأسى ! » ولما جاء دور رفيقا المنتدى ، إقتصر على لمس أطراف أصابعهم . وقد أرخى أهدابه ، وخاف أن يلسوا أكتافه قائلين : « أيها العجوز المسكين . . . »

كرر لهم شكره مرات عديدة . ثم وجه هته العبارات أخيرا إلى قوم كانوا قادمين لدفن جثة قاض وقد حاروا من أمره . لا يعرفون ماذا يريد منهم هذا الرجل ذى الرداء الأسود . وكما أنه من المتعذر أن يميز بين أصدقاء صهره وبين الزائرين الآخرين الذين جاءوا يشيعون ميتاً آخر ، فقد قام باستقبال كل المعزين الذين حضروا فى هذا اليوم سواء أكانوا قادمين لصهره أو لأشخاص آخرين فإنه اضطر لاستقبالهم جميعا وشكرهم .

ومن هذا اليوم لم يخلع حلتة السوداء ولا تنازل عن هياته

الحزينة . وصار تردده يومياً على منزل هاثيلان حيث يتناول
إفطاره وغذاه ثم يضع يده على رأس جودج ويصيح بين
الزفرات الحارة :

— هذا الولد هو تسليتي الوحيدة .

وفي مقهى كمار ، حيث يلعب البليارد كل مساء ، يصرح :-
ليس الذى فقدته صهرا فحسب ، لقد كنت أنزله فى نفسى منزلة
الابن ، . وفى الحق أنه كان رجلا ظريفا .

سمعت جولى ، وصيفة مادام هاثيلان ، بنجر الصرخة
الغريبة التى صرختها سيدتها عند ما رأت الطبيب ، سمعت بهذا
من البقال والقصاب اللذان كانا يتحدثان سرا فى الغداة ، وراجت
الاشاعة أن أنكليزى «حى لاتور» - موبورج قد مات مسموما
وأن زوجته اشتركت فى هذا الجرم . وفى بضعة أيام آخر انتشر
الخبر فى الاحياء المجاورة . وقد دهش الدكتور هرسان القاطن
فى شارع سان دومينيك ، عندما سمع امرأته فى يوم الاثنين
التالى تحدثه عن هته الاشاعة الدائرة ، عن هته الجريمة ، ولما

كان هرسان طبيباً عرضت له أحوال كثيرة كهذه وهو يعتمد على علمه وعقاقيره في أبحاثه ، لذا لم يثق بهذا الخبر واستحال أدائه مادام هاثيلان . وأجاب امرأته أن الطب لا يدع مجالاً للثروة هؤلاء الفضوليين . وقد وقع قراراً عن الوفاة مع زملائه ضمنوه وصف المرض الذي أصيب به مسيو هاثيلان . فهو لا يشك بتاتا في مادام هاثيلان ، وقد أهمل هذا الخبر .



ذهب لوجمار إلى مستشفى في الصباح لعادته ، ولكنه ،
لا انتشار وباء التيفوس ، تأخر عن ميعاده كثيرا . فلم يذهب إلى
موتبارناس إلا بعد أن دفن مسيو هافيلان . وكل ما أمكنه أن
يراه من الاحتفال هو حياة مسيو فيلير المحزنة ، وهو مستقل
عربة خارج المقبرة يحرقها جوادان أسودان ، وضعتها تحت أمره
مصلحة الاحتفال بالموتى . عاد إلى الخلف أمام هذا المنظر ، ومر
بين الزهريات ، وأوانى الرمل التي تستعمل لمعرفة الوقت . والتي
نقشت في المدخل . وإذ بشاب قوى يمسك به . وصاح بصوت
جميل يشبه روبر (١) وهو يصيح « أيتها الراهبات اللاتي ... » .
هذا هو رفيق المدرسة ، بوتيني الذي اشتهر في المدرسة بعدم
مقدرته على فهم العلوم والآداب ، وهو يشغل وظيفة مخبر في

(١) له يريد *Robert Macaire* إحدى شخصيات نزل أدريه . وأدريه
هذا هو زعيم بروستانتي ولد قريبا من جرينوبل واشتهر بقساوته . وقد
أبرزته الشخصية الممثل الفرنسي الدائم الصيت فردريك ليمير (١٨٠٠ -
١٨٧٦) وشخصية روبرت مثال للغة .

صحيفة كبرى . وقد جاء ليسمع ثلاث خطب تلقى على مقبرة
أحد أعضاء المجمع . أمسك بذراع لونجمار وقال :

— يا عزيزى ، أنتى أدعوك لتناول العشاء معى ، هذا المساء ،

عند بريثا .

فى أثناء الطعام كان لونجمار ثائراً كمادته ، يعالج عدة مسائل
فى الحب والنساء محلاً ذلك تحليلاً علياً . متفكها فى الحديث
يجور الكلام إلى معانى أخرى . وكانوا يكرعون كؤوس
الشمبانيا التى هى من الضروريات لبوتيبى . وكان دائماً منهما
فى العمل لقد مضى ساعات فى القطرات هى أسعد أوقات حياته .
لقد حضر حفلات إزاحة الستار عن تماثيل فى جميع مدن فرنسا .
ولحق برئيس الجمهورية فى البلاد التى غمرها الفيضان . وحضر
أفراح الطبقة العليا . وسمع محاضرات عما يصيب الكرم من
الآفات . رأى كل شىء وهو أقل الناس رغبة فى الاستطلاع . ولم
تكن تعجبه فى هذا العالم إلا بقعة واحدة . هى شاتو حيث يملك
منزلاً صغيراً وقارباًهما كل ثروته . ولم يكن من عمل
إلا ويحتاجه .

وتحدث لونجمار عن مسيو هايفلان فذكر أخلاقه ، موته ،

والأشاعات الأخيرة عن تسممه عن طريق الدواء .

نحو الساعة العاشرة ، قال بوتيلي :

— أنتى ذاهب إلى إدارة الجريدة يا عزيزى ، إنتظرنى برهة

فى منتدى 'سئيد' . أنتى مرتبط بموعد هناك

فى الساعة الحادية عشر كان الاثنان يدخان أمام مائدة من

الزئبق فى ضوء الشارع وعلى نور مصابيحہ .

قال بوتيلي : أنت ترى يا عزيزى أن مجذافا قصيراً ، يحسہ

الإنسان فى يده ، قد أحذب طرفه ، يخترق الماء كالمدينة ...

وهنا دنى منه غلام من غلمان الشوارع وقال :

— أن هذا لن يكون الليلة .

فأعطاه بوتيلي نقودا وصرفه ، وكأنه لم يرتاح الى هذا الخبر

فتمتم بكلمات ثم شرح الأمر لصديقه .

— هذا الغلام الذى يقطن الأزقة ، يعرف كيف تجرى

الأمور فى روكت . لقد جاء يخبرنى أن القاتل فى شارع

شاتو - دى - رتيير لن يعدم هذا المساء . وعلى ذكر هذا بما

أنك طيب ، حدثنى قليلاً عما إذا هناك ألم بعد فصل العنق ؟

فأجاب لونيهار !

— لاشئ أسهل من أن أشرح لك ذلك .

وابتداً في شروحاته :

— الحياة كائن كمي ، كما قال بوفون ^(١) ، تتأثر الزيادة أو النقصان . أما عقدة فلورين ^(٢) الحيويه فهي خطأ كبير . أصغ إلى جيداً إذا أمكنني أن أقول مع ييشا ^(٣) ان الحياة هي مجموع قوى تقاوم عند الموت ، يجب أن أزيد أن هته القوى تقاوم أكثر أول أقل وقتاً طويلاً في القضاء الاخير . ويُنتج فصل الرأس حالة جديدة قوية وتلغى الحاسية بصفة نهائية ولكن الحياة العضيلة تستمر . يجب ألا نخلط

— لا . لا . لا . افضل أن أحذرك . سيطول شرحك وأنا لم أفهم شيئاً البتة . ومن جهة أخرى . فأن العلم يبدو لي مبهما . هناك بعض مسائل ، مثل هذه التي تتعلق بخلود النفس ، مثلاً ،

(١) عالم طبيعي وكاتب فرنسي مجيد من القرن الثامن عشر ، ولد في مونتبارد ،

ومؤلف كتاب التاريخ الطبي (١٧٥٧ - ١٧٨٨)

(٢) باحث كبير في علم النفس ولد في موريلهان (١٧٩٤ - ١٨٦٧)

(٣) طبيب فرنسي شهير وحجة في علم التفریح ولد في تواریت وهو مؤلف

« التفریح العام » (١٧٧١ - ١٨٠٢)

ومثل هذه التي تتعلق بوجود الآله ، اللتان هما من الصعوبة
بمكان للسرور أن الآله لم يحىء ذكره الآن . وعلى ذكر
ذلك ؟ ما رأيك في وفاة الأنكليزى الذى دفته اليوم ؟ يجب أن
نردد هذا الصوت ، على شريطة التتميق قليلا . ماذا تقول فى
ذلك ؟

٩

لما أن أمرُ جُروْل امرأته أن تعد له حقيبتَه . أسر إليها أنه
راحل إلى أفرانْش حيث يباشر بعض الاعمال . وقد ورث حقلا
صغيرا في مكان مجاور . ونزل في فندق في ضاحية ، أقيم على بابهِ
تمثال للحصان الأحمر . وكان يُرى في الضياع ، يصب من
القنينات ، التي يحملها ، العرق في أكواب القهوة ، وذلك جرية
على العادة الشائعة في هاته البلد . وكان مرحا ، يتكلم بحزم ،
وظهر بمظهر الأَدب .

وفي يوم الأربعاء استقل القطار إلى جرانشي عند ما ولى
النهار ، في وقت مخيف ، هبت العاصفة ، كما يقول البحرّيون ،
وأمرت السماء ، وهبت ريح عاتية اقتلعت المصاييح التي سمع
دويها وهي تكسر في الطرقات . أخذ يتخبط نحو القرية القديمة
وعطف إلى شارع ضيق ، معوج ، مرتفع ، انتشرت فيه رائحة
ماء المد . وكان يُسمع لقدمه الأيسر ، حينما يرفعها ليتبع بها
الأخرى ، صوت المنجل في الحنطة ، كما أن جسمه ينحني إلى
الأمام مع كل خطوة . أسرع الخطى في الظلام الدامس ، وكان

يدفق الماء من تحت قدميه وهو يدمدم ويتوعد . دخل حانوت
تعس لبقال . وقد ظهرت في زجاج الواجهة الصغيرة مرطبان
للحلوى . ووضع فى الداخل مضجع ذا كلة مصنوعة من القطن
الاحمر . أما الأرض التى عليها البناء فهى غاصة أجزائها بالماء .
وعليها آثار نعال حديدية مقواة بالحديد . لم ير أحدا ، وبدون
انتظار البقال ، اجتاز الحانوت ، الذى كان المدخل الوحيد
للمنزل .

صعد الدرج وقرع باب الطابق الثانى ، فخرج شيخ صغير
يدانى ذقنه بشمعة . وامتنح الزائر ، من الباب المفتوح إلى نصفه
ثم أدخله فى غرفة مكتظة بحزم الأوراق الممزقة ، وسجلات
ممزقة الجوانب ، وأوراق مقواة مثقوبة عليها طوابع قديمة . ولا
شك أن هناك خلف حزم الورق تلك ، سباق من الفيران .
فقد كان يسمع من آن لآخر حركات صغيرة ، وأصوات غريبة
صادرة من أنحاء الغرفة تكمل أصوات العاصفة والمطر المتساقط
على السطح .

فى زاوية مظلمة ، مضجع وهنان غير وثيق الأوصال . تخيم
على أنحائه العارية سحب التعاسة . كما خيمت سحب الثرى على

ما هناك من أشياء فأكسبتها لوناً جديداً . وقد بدا وجه رب المنزل أغبر كلون المضجع . لم يكن فيه لينطوى على أسنان البتة . ولسانه لا ينى عن الذهاب والمجيء بين شفثيه الطريتين . ونظرة إلى عيونه ذات الزرقة الماسخة ، نراه يحلم ، فى خفة ، فى هاته الفيران التى تذكره بصوتها خلف الحائط . قال جرول وهو يجلس :

— آه حسنا . تريد أن تحدثنى ؟ ؛ هل من جديد ؟

مر الآخر بلسانه على لثنيه متمهلاً وقال بصوت أخف . يطيل فى نبراته :

— أتى لسعيد جداً برؤياك ، سيدى العزيز جرول ، هناك جديد إذا أراد الانسان وليس هناك إذا أراد . هذاتبعاً للارادة . فى أثناء حديثه مريده على لحيته الشهباء وبدأ كمن يعد كلماته على شعور ذقنه . قاطعه جرول بزجرة مفرغة للصبر . قال الآخر :

— آه . يا الهى اكم تضايق . من الحق أيضاً أتى أدعى تانكريد ريلين ، وأنتك تدعى ديزيرى جرول ، أتى أقف نفسى على خدمتك . إن الأب ريلين معروف فى كل الأنحاء من كارول

إلى حيث يصاد السمك في برها. الكبار كالصغار، يستشيروننى «
إننى أقوم بأعمال كل هؤلاء السادة. وليس أمس يبعيد، لقد
جدد مسيو دى تانكارفى ثقته بى. آه! سيدى العزيز! تلك
هى ثقة كادت تُفقد! قال لى مسيو دى تانكارفى، ما نصه :
« ريلين، أريد أن أشعل معك غليونى، ثم هاك ما حدث.
فى الأسبوع الماضى، فإن البارونة دوبسك — مارينشى...
هوى جرول على المائدة بقبضته مقاطعاً. فصمت ريلين
دقيقة. ثم عاد بصوته الطويل النادر.

— هلم إلى أعمالك إذا سمحت. أنتى أنتظر أمرى. لقد
أحضرت لك ورقة ميلاد صامويل أوار وأوراقا أخرى تثبت
شخصية هذا الرجل. ولقد مرت هاته الأوراق من يد إلى
أخرى. ياسيدى العزيز، دون أن يضر ذلك بالفائدة التى تريد
أن تجنيها. أنتى لم أعمل ذلك إلا لمصلحتك.

قال جرول وهو يقطب حاجبيه : وبعد ذلك.

أجاب النور مندى : — إنتظر قليلا، انتظر.

ثم بلل شفتيه وقال : — لا أريد أن أبحث ما هى مصلحتك
فى الحصول على أوراق صامويل أوار، أنتى حازم. أن الحزم هو

من فضائل عملي الصغير ، ولكن هب أن صامويل أواز قد مات .
فصاح جرول : وربك ! إذا كان قد ذهب فلن يعود . ثم
أغرق في الضحك . قال الشيخ وهو يتأمل في الدبايس المعلقة
في كميابه :

— انتظر ، انتظر ، لنفرض أن شخصاً يحرز وثيقة رسمية
مسجلة عند وفاته ، وثيقة وفاة صامويل أوار ، المتوفى في جرسى
دون أن يترك نسلاً . وأن هذا الذى يملك الوثيقة استعملها
في الوقت الملائم .

فتح جرول يديه المخيفتين وقد بلغت الروح التراقى من هذا
العجوز الثرثار شريكه في الجريمة الذى يريد الآن أن يدخل إليه
بأن الأوراق التى حصل عليها بضمن باهظ لا تجدى شيئاً :
قال بغلظة .

— لا داعى لهذا الدهاء والغش .
اضطربت مقتل الرجل الطيب بقلق . ولكن كان صوته
هادئاً حينما عاد الى حديثه :
— كل ما قلته لك ليس إلا لخدمتك . ولكنى أرى أتى
على النقيض منك . لنطرح ذلك بعيداً ولنبق أصدقاء طيبين .

وقف ثم ذهب إلى حيث مكتب تعس من خشب الجوز
فتناول من عليه أبريق ماء فيه حزمة من الأزهار . قال وهو
يضعه على المنضدة :

— انظر . ستكون في حوزتي لكل الفصول . كلما مررت
بكارنيرى هناك ، في الطريق العام ، أجمع بعضاً من هاته الأزهار
من الحفريات التي تحب أملاك السيدى ليجل . فأحزم باقة
وألقيها بمندبلى .

مر يده - متمهلاً - على الأزهار الزرقاء كيها تسقط المياه
العالقة بها . أضاف :

— وما دام الانسان يجتثها من جذورها . فليأت كد من أن
هاته النباتات تعيش في الماء كما لو كانت في الأرض . آه يا إلهي !
ليس لى لا امرأة ولا ولد ، لا كلب ولا هرة ، يجب أن أتعلق
بأى شيء : أتى أحب الزهور .

لم يكن جرول يسمعه . عض شفثيه وضغط على عظم
أصابعه . قفز فجأة وصاح : - أنك تملك وثيقة وفاة صامويل
أوار . اعطنى إياها ، انها تلزمنى ، أريدها !
ألقي ريلين نظرة فجائية على منضدة الخشب الجوزى .

ورفع إبريق الازهار برشاقة ووضعه في مكانه ثم جلس وبل شفتيه . قال :

انتظر . كن حليماً . إني أملك هاته الوثيقة ولا أملكها . ومن الجائز ان أستعملها وقد أهملها ولا أفكر فيها . ولكن لتناقش بزعم أنتى حصلت عليها . لقد علمت أخيراً ان مسيو هافيلان - الذى تلحق بخدمته منذ اعوام كثيرة ، أليس ذلك حقاً ؟ - يبحث عن نفس هذا الصمويل أوار . ومن الطبعى أنتى افكر فى خدمته يا سيدى العزيز . وسيمتلى غبطة بالحصول على معلومات خاصة بهذا المسكين صامويل ، الذى توفي بئساً فى جرمى .

نظر ريلين إلى صاحبه ليرى مبلغ اقتناعه ولكن جرول أجاب بهدوء :

— إذا أردت ان تبعث بالورقة إلى سيدى فاعلم أن المنون قد اغتالته فى هذه الساعة .

لحق رجل الأعمال وجنته اليسرى بلسانه وحلق بعينه الزرقاويتين فى الخادم مرسلاً نظره الحاد . فى حين نظر جرول إليه بمكر ودهاء . قال :

— يا للسيد المسكين هايلان ! هذا هو مصابنا ! ولكن هل أنت واثق يا سيدى الطيب ، من موت سيدك ! هناك إذا ! يا لليسوع ! أمراض يمكن أن تعرف نهايتها من البداية . وأسفاه ! يجب أن نعود إلى عملنا . أن مسيو هايلان قد ترك وريثة كم سيكون سرورهم عظيماً حينما يعلمون ما آل إليه المرحوم صامويل أوار . ليست عندى إلا رغبة واحدة ، يا سيدى الطيب ، تلك هي أطاعة كل شخص .

عاد جروول إلى هدوئه وهو يتسم مكرأ ..

— ولكن وريثة هايلان لن يعطونك صولدين نظير ورقتك التافهة . ستكون أبلها إذا أرسلتها لهم ... أى فائدة تجنيها من ذلك ؟ إعطى إياها وسأدفع لك مبلغاً ، بعد وقت ما . — مهلا ، قص على عمالك الصغير . إن الرجل الطيب ريلين يتمتع بعقل راجح . وحينما أعلم ما سيعود عليك ، أسدى اليك النصيح .

— ليس لدى ما أقصه عليك .

آه . ألهى . إثنى أعرف ما هناك . أنك جبان ولكنى سأساعدك . إن لصامويل أوار مكافأة صغيرة عند هذا المسكين

مسيو هاڤيلان ، وقد جاء ذكرها في الوصية . فأذا حصلنا على بعض ورقات تثبت شخصية المتوفى . يمكنك أن تأتي بشاب قوى الإرادة ، وينتحل لنفسه شخصية صامويل . بعد أن تعدده بمكافأة حسنة . فيذهب إلى وريث مسيو هاڤيلان ، ويحصل على المبلغ المخصص له . آه يا إلهي ! لا تعارض ! لا يجب ترك المال مدفونا ، وهذا المسكين صامويل قد فقد الحياة ولم يتذوق خبزه . ولكن ، يا سيدي العزيز جرول ، من الذي سيمثل دور صامويل . وإذا استولى على كل شيء لنفسه ؟ فقد يكون غادراً . وينقص عليك . يجب أن تفكر في كل شيء . إن هذا العالم السافل مليء بالخيانة والغدر ! حذار ! إني لا أبغى شيئاً غير سعادتك .

مر الرجل بطرف لسانه الجلودى بين شفثيه وأتم :
— اُحذرك . الرجل الفطن يساوى اثنين . إني أعرف هذا الشخص الذي يملك قسيمة وفاة صامويل أوار . هذا الشخص ليس بتركي أو يهودي . إنه لا يريد بك شراً فهو أعقل من ذلك . وقد أذنتي أن أبلغك إرادته : تحصل على نصيب صامويل أوار ، في الوصية ، وعند ما تحصل عليه ، أعطى لهذا

الشخص جزءاً معقولاً بواسطة ، ليس هذا معناه أن تعطيه النصف . لا . . . هذا سيكون كثيراً ، يجب ألا تضايقك . . . ولكن ، كما قال ، جائزة بمعدل خمسين في المائة . في نظير ألا يذيع هذا الشخص سر المسألة باستعماله الوثيقة التي يحرزها ، الأمر الذي يغضبك ويسبب لي أشد الألم .

كان جرول منزويًا في الظلام طوال هذا الحديث ثم قفز إلى الرجل وقبض على عنقه صائحاً :

— اعطني الوثيقة . أيها الشيخ اليهودي . وإلا خنقتك .

لقد كان يخشى أن تصادفه عقبة لم يحسب حسابها .

بدى ريلين ، الأصفر الهزيل ، كأنه في النزاع ، جمد وقاوم بعضلاته بمرونة رجل ذي خبرة على العراك مع البحارة الذين يرهنون عنده ساعاتهم ليشرّبوا الخمر . زادت هاته المقاومة من خوف جرول ، الذي انصبغ بلون أحمر وأخرج مديته الرديئة ، ذات النصل المدب ،

وهنا زلق الشيخ كما يطلق لنفسه الحرية ، فوقع أمام زاوية المدخنة ، الأمر الذي سبب له جرحاً في جبهته . وقع جرول معه دون أن يتركه . ورأى خدش غريمه ، ثم الدم الذي سال

غزيرا ، هذا الدم وتلك الجراح سببت له الوهل . وبحركة عضلية ،
أغمد السكين في صدر الشيخ . . ثم ، بعد دقيقة ، بدت له طويلة
الأمد ، لم يلاحظ شيئا .

تمدد الرجل فوق يده ، لم يزل جاحظا عينيه الزرقاوين ،
فاغراً فاه . يقاوم بكل عضلاته : ثم ، بعد هاته الدقيقة الأخيرة ،
أقفل يده وفتحها كمن يمسك بشيء . ولم يبد أكثر من هذا .
إذا رقد الرجل رقاده الأخير وقد ارتسمت على شفثيه
ابتسامة الماكر . كسر جروول بمديته قفل المكتب الجوزى وصار
ينبشه ويرمى بأوراقه . قاربت الشمعة الانتهاء وهى ترقص .
وأخذت الفيران تقرض الأرضية . وسط هذا السكون . نبش
حزم الورق ، والمظاريف ، رمى بكل الأوراق فوق الجثة
الهامدة . وجأة أنيرت الغرفة بلهب عظيم . فقد سقطت ورقة
على الشمعة ، فأشعلتها . استمر ينبش الخطابات ، الورق المقوى ،
الأوراق القديمة ، الحقائق الجلدية ، ومحافظ الورق . أخيرا ،
وجد ورقة مختومة فوضعها فى جيبه وقد تنفس الصعداء . أطفأ
الشمعة التى كانت تدخن وقد هب على وجهه لهيبها فخرق جفونه
قبل أن يتمكن من إخماد لهيبها . ثم أخذ قبعته وخرج .

أنصت لحظة في الخارج ، ثم صعد على درج الهرى ، ونظر
على نور السماء في الشارع . رأى ، على مدى النور المرسل على
الطريق المبلل ، أن حانوت البقال لم يكن مقفلاً فاختفى خلف
الصناديق الفارغة وانتظر طويلاً وقد علا صوت الخنازير ،
وشخير النائمين ، ودقات الساعات . . أخيراً . . لما أن وثق من
إن المنزل والشارع في هدوء تام ، تسلق جبلاً ، كان البقال
يستعمله لأصعاد بضائعه إلى الهرى ، ونزل إلى الشارع في خفة
القرود .



١٠

نقمت هيلين ولا يشغلها إلا فكرة واحدة ! الاستحواذ على رينيه والحرص من أن يفلت منها . تريد ألا يبرحها ظله . تحس إلى جانبه الطمأنينة والقوة . فلقد زعمت أنها إذا ما جمعتها غرفة واحدة ، لن تشعر بهذا الخوف والفرع اللذان يعتريها . إذا فلتتزوج وتعيش في سعادة بين زوجها ووالدها . وكل ماضيها البريء حافل بذكرى هذين الرجلين . ! لا إن العقل الشرير لن يوحى إليها بكل هذا الحب .

ولم تدر شيئا من الأشاعات الدائرة حولها في الحى .

ونظرة إلى وصية مسيو هافيلان ، التي قرأها الوصى على الورثة ، نجد أنها خالية من التعقيد والأبهام . فقد ترك المتوفى استثمار ممتلكاته لهيلين هافيلان الملقبة بفليير ، ثم توول هاته الممتلكات بعد وفاة المستثمرة إلى جورج هافيلان أو إلى ورثاته المباشرين ، إذا خلف ورثاء . أما جرول فقد ربط له مرتبا سنويا ألف وماتى فرنك . وأوصى صاحب الوصية أن تكون إدارة ثروة جورج هافيلان القاصر التي كان يديرها هو

في يد صديقه الشيخ م . شارل سيمبسون المالى الباريسى .
ولكن حالت الظروف دون إرادته هذه ، فقد أصيب بكسر في
العظام من جراء كبوة جواد ولم يتمكن من قبول المهمة التي
أناطها به صديقه المتوفى . وعلم مسيو فيلير بهذا المشكل فظن
أنه يمكن أن يحل محل مسيو سيمبسون .

وأخذ يظهر عطفه على ثروة القاصر وملاء الأوساط
المختلفة حديثا عنها . حتى أنه قال يوما ، وكان ذلك بعد الغداء ،
حينما أحضروا له الكونياك ، ولفاتف التبغ : أتى أشعر
بالعطف على هذا الناشئ ، ويشغلنى أمره كما لو كان ابني . أشعر
نحوه بعاطفة الأبوية .

وبعد أن وضع قطعة من السكر في القهوة عاد إلى حديثه :

— لا أعرف ماذا كان ينبغي أن أفعله نحو هذا الابن .

تأمل قطعة من السكر وهي تذوب في الفئجان وابتم
بحزن لهذا الاختفاء ، كما لو كان يراعى أمه ، وقد لاح له أنه من
الضرورى أن يكون وصيا على جورج هاثيلان ثم شرب ماتكون
من قطعة السكر وعأوده الأبتسام .

أمعنت هيلين النظر إلى والدها بقلق وقد تنبأت بما سيقوله

لها . جرع كما سأ من الكونياك وقال :

— هذا المسكين سيمبسون كبا به الجواد بحالة يرثى لها
ولعمري هذا شيء يؤسف له فنذ مدة قصيرة كان قويا يمتلي
نشاطا . وها هو يصير معتوها . . . حينما قلت أنه نشيط ،
كنت مبالغاً فهو لم يتعود قط على إدارة الأعمال الكبيرة ، هذا
رجل جبان ، يخشى المخاطرة .

وأشعل مسيو هافيلان لفاقة التبغ . لقد خاطر ! صمتت
هيلين وهي تحقق بوالديها الذي يدخن في سكون مرتديا ثيابه
السوداء . يبدو في تدخينه بطلا وسط السحب . وتجلت فيه
عبقريّة المالين . عاد إلى حديثه :

— هذا السيمبسون كان لنا ، متساهلا ، وأنا أتساءل عن
مبلغ عطفه الأبوى على جورج .

ثم ، وقد انتهى من مقدماته ، أخذ في طلب ما يريد .
أملى عليها خطابا إلى أفراد العائلة تنتخبه فيه وصيا على جورج
هافيلان . رفع رأسه وشاربيناته نحو الورقة قائلا :
— أكتبى ، يا إبتى ، أكتبى :

« وأنتى لواقعة من أن هذا الانتخاب كان يحوز قبول زوجى .. »

وجمت إزاء هذه الأكذوبة الفاضحة ، والاختلاق الغريب .
ولكن ، قد جحظت عينها نحو أبيها ، رأت وجهه المحترم
وهدوءه . الأمر الذى جعلها تكتب ما يمليه عليها . وأخذ هو
يفرغ عبارات الحنان الأبوى فى أحسن قالب . وذهب ليضع
الخطاب فى صندوق البريد . فى حين جلست هيلين وهى خجلة
هلعاً لأنها خدعت زوجها المائت . . أنها تفكر : لو عاد . .
فلقد تخيلت رؤياه . واقشعر بدنهما . وارتعدت فرائصها لهذه
الفكرة . ونم وجهها عما تنوء به من تفكير . أنها تعلم حق العلم
أنها لن تراه إلا فى الخيال ولكنها لاتستطيع أن تبعد شبحه عنها .

لم يغمض لمسيو فيليز جفن طوال مساءه . أنه يفكر فيما
فعله اليوم . عاد إلى مضجعه وهو يقرع الكوب والدورق
الموضوعان بغليونه . فى حين كنت ترى عويناته جانباً الى
الشمعدان على المنضدة المصنوعة من خشب الأكاچو . وقد شغل
فكره بالثروة المقبلة ، ثروة هذا الصبي الذى سيصير تحت وصايته .
ليس هذا فقط . فإنه يأمل ان يجد ابنته سهلة القيادة . وهنا ينفذ
مشروعه الخطير ، أمنيته ، وحله الوحيد . سيبحث هذا المشروع

من مرقده ، فيؤنس : شركة الرهونات . ولن تمتنع الحكومة
عن السماح بتأسيس شركة لها ضمان كاف . أن قائمة أعضاء
مجلس الادارة ، تحوى اشخاصا ذو اوسمة وألقاب ، الامر
الذى يكسب الشركة ثقة تامة . في هذه اللحظة السعيدة ، لحظة
سما فكره إلى عالم وارف من الظلال ، رأى مسيو فيلير شبهاً
خيفاً بمرين أستار مضجعه . . هذا هو شبح شركة العنقاء .

شعر بالعرق البارد على جبهته ، وتحت رداءه المصنوع في
مدراس ، ولكنه أزاح عنه هذه السحابة الخيفة . تأمل من
جديد في مشروعه . تخيل لشركته رمزاً سامياً : يدان في أكام
من النسيج الأبيض الشفاف . وأمسكت احدهما بالآخرى
وارتأى ان يطبع هذا الرمز على النشرات والأوراق الخاصة
به وعلى الخطابات ، والتحاويل ، والسندات ، والتعهدات ،
الصكوك ، وينحت على الحجر في واجهة العمارة التى تشغلها
الشركة الجديدة بجوار الأوبرا . سوف يبتاع قطعة أرض في
هذا الحى المتوسط ويقيم عليها بناء فخماً لهذه الشركة .

تنفس الصباح ، ولاحت الأنوار الأولى بين ستار النافذة
ومسيو فيلير غارق في مشروعه يحلم فى الآثاء ومايعوز الشركة
من منقولات .

١١

فى اليوم التالى لهذا الذى تناول فى لونهاار وصدىقه الغاء
عنا برىقا . جلس الاول فى مقهى ىتناول أفطاره وىطالع
جريدة . فوقع نظره على عامود من الاخبار بعنوان « النظارة »
لم ىوقع كاتبه باسمه الصحيح . وقد عرف أن كاتبا هو بوتيه .
قطب حواجه حىنا قرأ الآتى :

« لقد قضى عظم من عظماء الأناجب ، وهوى نجم . ساطع ،
ومت أنفاس مسىو هاڤىلان الذى شىعت أمس جنازته ، وقد
ترك فى منزله المملوء بالتحف والنفائس ، فى شارع لاتو -
موبورج بمجموعة قيمة فريدة ، تحوى بضعة آلاف من الزجاجات
الملاى بالمياه من جمىع البحار والأنهار والىناىع والشلالات فى
العالم . وكان مسىو هاڤىلان شهىرا بنخىراته أكثر من شهرته
بمجموعاته ، وأن موته ، الذى سىكون له رنة أسف عميقة من
كل فقراء حى الأنقالىد ، ىبدو أنه ناشىء عن خطأ غير مقصود فى
تركىب الدواء الذى كان ىستعمله لمعالجة روماتزم أصابه . وهذا
هو رأى أمراء الفن . ونحن جد سعاداء بما لىنا من المعلومات

التي استقيناهما من مصادرها الوثيقة بحيث يمكننا أن ندل على
الأسباب الحقيقية لهذه الفاجعة الالمية . .

أغاظته العبارة الأخيرة وأهاجته سطورها . وقد صمم على
أن يقطع وجه صديقه بسياطه . وصاح حانقا ، لأعرف اين
يجثم هذا القرد ، وانطلق يبحث عن إدارة الصحيفة . وقد قابله
في الفناء الذي نصب على مدخله تمثال برنزي لعصفور وآخر من
الرخام الأحمر على هيئة حمامة . الأول فوق صندوق الخطابات .
والآخر فوق هذا الذي لصور المراسلات . وكان المخبر يستعد
للخروج وهو يفتح مظله ليتقى المطر الذي يهطل في الخارج .
وقد أمسك هذا بذراع لونجمار وقد عادت به الذاكرة إلى يوم
سرق منه بوتيه أجوبة الامتحان من درجه لكى ينقلها بدورة .
فأخذه شىء من الحنان . ابتسم بوتيه لرؤياه وصاح به :

— يا عزيزى : اتى أدعوك لتناول العشاء معى هذا المساء
عند بريقا ، أتى ذاهب لحديث مع الحاخام الأكبر . وقف
لونجمار فى طريق صديقه واضعا الجريدة الممزقة تحت أنفه وقال :
— ماذا تعنى بالعبارة الأخيرة من مقالك ؟ من ، كما تقول
أعطى معلومات عن هذا الحادث ؟ ما هى شهتك ؟ ومن تشبهه
فيه ؟ أجب ..

أدار بوتييه عيناه إلى لونيهار والصحيفة . ثم أجاب بسداجة :
— سأقول لك يا صديقي القديم . لقد فعلت هذا كما أردت
الصوت . . أردت الإشاعة الدائرة . . هذا كل ما هنالك . وكما
أنك تأثرت بها . . فيجب أن تتنبه جيداً ! لقد هاجمت
ولم أذكر أحداً . وسوف يتردد هذا الصوت ، ويرن صداه
في هلدرا^(١) هذا المساء .

تركه لونيهار بعد أن هز منكبيه ، إن أعصابه لمتأثرة جد
التأثر . وقد تنازعت عوامل مختلفة وصدمته الحوادث تباعا ،
وأصابته منه العواطف . ان مما لا يقبل الشك أنه أحب هيلين ،
وأن هذا الحب سبب له متاعب هائلة . وتحت هذه المؤثرات ،
ينتهي في أسبوع من كتابة مقالة للجريدة الطبية وألف قصيدته
الأولى . واتصل فجأة بياثة زهور في مرقص عام أنفق عليها في
ثمانية أيام مرتب أربعة شهور .

أخيراً أبدى له أن المقالة والقصة وبائعة الزهور . شيء تافه
ممل . وقضى أسبوعاً أيضاً بعد ذلك في حالة ضجر ومضى في

(١) ميناء حربية في شمال هولاندة — على بحر الشمال . والمؤلف يعني بذلك أن
الإشاعة سوف تملأ العالم .

يوم صحو إلى منزل شارع لاتو - موبور حيث أمكنه - بعد كل هذا الوقت المنصرم - أن يقدم إلى الأرمل تعازيه الحارة .

حينما اجتاز الفناء ورأى المدخل بدا له أن قد مر قرن لم يره فيه وكان تعباً كما لو كان قد عاش حقب عديدة ، وأعصر مديدة .

انتظر هيلين بضعة دقائق في ردهة الاستقبال . حينما بدت أمامه في ثيابها السوداء ، تخيل أن هذه هي المرة الأولى لرؤيته لها . وليس هذا إلا لأنها قد تبدلت تماماً . فمذ أن نقهت وقد بدن جسمها وأشربت ديباجتها حمرة قانية . وقد تخيل وهو يراها أنها قد لبست ثوباً جديداً . وابتسمت عيناها تحت شعرها المرسل على جبهتها . ابتدأت هي الحديث . فكان اللاشيء الذي قالته داعياً لاهتياج شعوره . وكانت هي أقدر منه على ضبط شعورها . حدثته عن تذكارات الوفاة الأخيرة وما إلى ذلك من آلام وشجون . ثم انتقلت إلى التحدث عن المستقبل .

حدثته أنها لا تحب العالم . وسألته عن مشروعاته . فهو يريد أن يجرب زبائن المدن ، فيحترف الطب فيها ، وسيمده والده باللازم . فوافقته على ذلك قائلة أنها ذات اصدقاء في سان

جام ونوبي يمكنهم أن يساعدوا الدكتور الشاب ويكونوا
عملائه . ووعده أن تشرف على عمله . وتهتم لمستقبله . أما
بالنسبة لها فقد قالت أنها لا تعرف ماذا ستفعل . أضافت
باختلاق لطيف ان الثروة التي ترك لها مسيوهاثيلان استثمارها،
والتي خصص جزء كبير منها للخيرات ، ليست بذات أهمية لها .
أضافت : « إذا صرت امرأة فقيرة . هل تباعد عني ، وتنفر
منى ؟ وهنا دل على ذوق سليم بعدم إجابته . لم يتحدثا بكلمة
عن الحب . ولم يخطر لأنفاسه أن تضم أنفاسها . أن يتنفسون
بجهد ، وهم ساجدون في عالم لذيق . عالم الحب الذي يشعر كل
منها به . قالت أنها تشعر بالحر . أخذ يدها وضغط عليها بعد
مجهود منه ولم تستعيد لها منه . لم يعرفا ما يفعلان وإن هما
ليريدان الموت سويا ، أوقف الضمير هيلين . فسحبت يدها
ومرت سحابة غيم على جبهتها . فكرت قليلا وقالت :
— هناك أعمال قد فعلتها ولن أزيد عليها .

عقب هذا القول ، الذي أذكي في نفسها دفين ذكرياتها ،
أدار رينيه رأسه وقد انحدرت دموعه على وجنتيه . في دورته
أخذت يده . وطرقت آذانهم صوت أقدام في الردهة . قالت :

« حبيبي ، حبيبي ... » وبدون أن تتم ، سارت قليلا وجلست
على أحد المقاعد .

دخل مسيو فيلير ، الذي أعلنت قدومه حركة حذاءه .
وصافح الطيب بحرارة . وقد تذكر ليالى شارع نيٲب - دي
بٲيت - شامٲ . قال لرينية :

— لقد رينناك ، أنت أبنا . ومن الحق أنك رأيت عندي
وجوه عديدة وأشكال جمه . لقد كانت بالنسبة لك مدرسة
للملاحظة . والآن .. لقد قتت إذا بسياحات . ورأيت أقطارا ،
كحمامة لافونتين . آه ! البحر !

انطلق يتكلم عن أشعار المحيط بنشاط . ثم طلب أن يأذنوا
له في قراءة رسائله والرد عليها .

استوى أمام المنضدة . وقرأ أوراقا وهو يتذمر ويدمدم دلالة
على تدمره ومлле . وقد تراكت أمامه أكوام الورق والصحف
لذا فقد اقتصر على قراءة الهام منها

وأما هيلين ورينية فقد كانا يتبادلان النظر في سكون وهما
يحملان أنها وحيدان .

أخيرا جر قلبه فوق بعض الأوراق ووقعها بخشونة مرسلا

أيها إلى البريد . واستنشق الهواء مالئاً رئتيه . عاد إلى ملاطفته . أنه ولد طيباً ، في شيء من السخرية . . إقترح أن يقوموا بنزهة خارج البلد ، في الضواحي ، في حين لم يبد احداً رايه ثم انها ليست برحلة سارة . ولما كان يجب ان يتناولوا غداً هم في الخارج فسياً كلوا بعض المقلبات في ميدون .

وسار الثلاثة إلى نزهتهم وهم يكونون عائلة واحدة . . . في ميدون السفلى ، ساروا وسط العشب على حافة الماء . رفعت هيلين ذراعها برشاقة لتحمي قبعتها فكانت تلك الدقيقة من لحظات رينيه السعيدة . كان شعر المرأة الصغيرة مرسلاً على جبهتها وقد لمعت عيناها من تحته ببريق عذب . وتبادل الاثنان النظرات العميقة البريئة الدالة على شعور كل نحو الآخر . تذكر مسيو فيلير أعماله . فطلب مداداً وورقاً . ولم يحصل - بعد مشقة - إلا على ورقة قدرة . وقلم علاه الصدى ، نخط على ورقة زرقاء من ورق بات الأنكليزي بعض أرقام - ووضعها في جيبه . ثم سأل بخشونة إذا كان صديقه الشاب لا يعرف أصحاب السفن في تولون . قال هذا بلهجة تدل على أنه سوف ينتج فكرة عظيمة . الأمر الذي يعد محالاً . . .

تناولوا غذاءهم . وعصر مسيو فيلير نصف ليمونة على غذائه
المقلى . وقد فعل ذلك بظرف يتجلى فى يده الغليظة القصيرة
المثقلة بالخواتم . تأمل الشايبين من خلف عويناته ذات
الأصداق . تطوى نظرتة هذه شىء من الغبطة والبركة . وقد
امتدت أمامهم فوق النهر ، مرعى للماشية . وسدت الأفق جزيرة
طويلة بستر من شجر الحور . ومرت بعض قوارب فيها رجال
شمروا عن سواعدهم يحدفون ، فى حين اتجهت انظارهم إلى النساء
الأنينات الواقفات أمامهم فى الجزيرة ، ينادينهم ويضحكن لهم
وبدى نور يخبو فوق البحر ، أشبه شىء بنور الجباحب ، ثم هطل
الودق ، ورعدت السماء ، وهب نسيم لطيف وسط ، هذا الظلام
الداجى . نخلع رينيه دثاره الأسود ووضعه حول منكبي هيلين
أما مسيو فيلير فقد أخذ يتأمل جمال الطبيعة ، وقدرة صانعها .
فأجابه لونجمار أن الطبيعة إن هى إلا مسرح لمقتلة عظيمة دائمة .
وأن مخلوقا لا يعيش فيها إلا للقتل . وهنا أجاب مسيو فيلير :
— أنك تذهب بعيدا جدا .

كان هؤلاء المتسربلين بالظلام ، يشعرون فى اجتماعهم
بسعادة ، وقد كانوا سيظلوا هناك وقتا طويلا ، لو أن رجل

الأعمال لم يفكر في متدى كلبار . فما أن تذكر أن وقت الذهاب للعب البليارد مع بعض التجار والوسطاء قد حان ، حتى قال وهو ينظر في ساعته ، ويرمش بأهدابه الثقيلة :

— يا أبنائى . لقد حان ميعادى . أنتى مرتبط بموعد هام جدا . ثم أنه لن يمكننا البقاء هنا لأنها تنذر المطر .

سكنت الرياح . وعدت بعض سحب عدوا مخيفا فى السماء وبدى قمر كامل . قد لبس حلة حمراء ، وكنت ترى الثلاثة يبحثون عن الممر الضيق الذى يصعد إلى ميدون العالية ، ويؤدى إلى المحطة . وسارت هيلين متكأة إلى ذراع رينيه ، وقد حبس أنفاسهم سكون الليل الرهيب وفجأة سرت إلى هيلين قشعريرة . قالت :

— أنتى أشعر بخوف

بدى رجل فى أثمال بالية ، طويل القامة ، هزيل ، طالت أقدامه ، وما أن رفع قبعته القش ، حتى بدى وجه نحيل ، ذا عينين كبيرتان كدرتا اللون . مد يده وهو يتمم نوع من الرجاء . ضغطت هيلين على رينيه وهمست :

— أرايت ؟ أنه يشابه ... آه أنتى أرتعب ا .

أبدى رينيه قلقه . هذا المتسول يذكرهم بالسيد هاويلان .
وقد تألموا لهيأته الفانية . وخركات الألم الذى يبيدها ، وهى
شبيهة بتلك التى أبدأها من قبل مسيو هاويلان . اجتازا الطريق
وقد تناثرت الأحجار تحت أقدامهم . وهلين على أسوأ حال
من الفزع . وجحظت عيناها نحو شئ فى الظلام . فى حين لم
يرينيه أمامها غير شغاف الأشجار تلف حول صخرة كبيرة
ولكن الأرمل كانت ترى شيئاً آخر ، زاد رعبها فصاحت صيحة
الخوف وسقطت إلى الخلف . فأراد مسيو فيلير ان يجلسها
ولكن رينيه منعه من ذلك وتركها ممددة . لقد كانت فى حالة
جمود . وشفته تتحركان وهى تزبد . وجحظت عيناها نحو
السماء . ولما ان أفاقت لم تتذكر شيئاً ، فهى تعبئة منهوكة القوى
وما أن وصلت إلى باب المنزل حتى طلبت من والدها ان يذهب
لينام معها فى المنزل ذيك المساء . لأنها لا تزال جد خائفة .
وشدت على يد رينيه بيدها الجليديه التى لا أثر للحياة فيها .
ونظرت إليه فى وهن ويأس .

١٢

استمر خوف هيلين وهلعها واستولى عليها القلق والفرع
فهى تخاف السكون وتفزع للجلبة . المنزل وغرفه ، الشارع
وضوضائه ، كل هذا شئ مخيف . فى كل الطرقات كانت ترتجف
هلعاً .. إلى أن جاءت صديقتها القديمة ، ربيبة المدرسة ، سيسيل
والتي تأهلت برجل ثرى . أتت فى حفل كبير لترى الأرملة .
وقد سبب ابتسام الزائرة وغمزها ، عذاب هيلين . لقد قرأت
سيسيل كلمة الصحفى التى لمح فيها من طرف خفى الى موت
هاويلان ، فأذكت فيها حب الاستطلاع . قالت لها :

— ما أكثر هذيان هؤلاء الصحفيين . أنهم يتحدثون عن
موت فقيدك يا عزيزتى المنكوبة ، ويغمزون من طرف خفى
إلى أن الحادث ليس بطبيعى ، بل هناك سر قد كشفوا عنه .

أجابت هيلين بفرع :

— إتنى لا أفهم منك شيئاً . أوكد لك . . .

ولكنها ارتبكت ولم تستطع المضى فى حديثها . فلقد بدأت
بالدفاع عن نفسها كأنها متهمة بقتل زوجها !

بحث عن هذا العدد وقرأته ، فأصابها الأرق المستمر .
في هذا الوقت ، كانت محكمة أفرانش مشغولة بجريمة القتل
في منتصف الليل . إن ريلين و كيل الأعمال ذو السمعة السيئة ،
وجد مقتولا في منزله . شارع جستر في جرانفى . حصرت
التهمة أولا في عامل بحرى ، سكير معربد ، كان في زيارة ريلين
الساعة الخامسة من مساء اليوم السابق لاكتشاف الجريمة . وقد
رآه البقال ، الذى يسكن فى الطابق الأول ، وهو صاعد وعليه
علامات الشر . ولكن التحقيق الطويل أسفر عن براءته فأطلق
سراحه . وعادوا إلى البحث فى منحنى آخر . فامتحن المحقق
ظروف الجريمة ، وذهب إلى منزل القتل ، فعابن الأوراق
المبعثرة بعيداً عن المكتب ، وقد استنتج انها نبشت بسرعة
وألقيت على جثة القتل . فكونت مجموعة كبيرة . ووضعت كل
فى مظروف ، تحمل اسما وعنوانا . وقد ترك الباقي منها حينما
وجد بغيته . وحدث أن عثر المحقق على مظروف فى آخر
المجموعة ، وهو فارغ ، دليل على أن أحداً ما استولى على
محتوياته . وعلى زاويته العبارة الآتية :

مسيو جروول ، عند مسيو هاڤيلان يارى .

فبحثوا عن اسم جرول في جرائقى فلم يعثروا به . ولكنهم وجدوه في افرانس ، في سجل فندق الحصان الأحمر . وقد كان هناك حينما جاءه رجال الشرطة فقبضوا عليه .

علمت هيلين بهذا الخبر من الصحف ، بعد ليلة قاسية ، رأت فيها شبحة في حالة مفزعة ، كان أمامها ، دون أن يذكرها بشيء ، ودون أن يصبغ وجهه بأرجوان الحنق والأزدراء . لقد أراها فقط صنيعته . وهو مرتدى في ثوب دموى كيف تعيش إذا ، إذا عاد شبحة إليها كل ليلة ؟

جاء والدها وقت الغذاء فارتمت عليه بحجاب وخوف وحدجته بعينها وهي تهزه بعنف حتى انه اضطر ان يقول لها :
— ماذا عندك إذا . أنك تسيئين إلى .

ثم حدثها انه كان دائماً غير راض عن جرول . وها قد اكتشفت جريمة هذا التعس الذى اقشعر لها بدنه ، وقد طرأت عليه فكرة جديدة هي البحث عن صامويل أوار ، فكتب في الصباح كتابا خاصا بهذا الموضوع إلى سفير فرنسا فى انكلترا ، وسيواصل أبحاثه . وفى أثناء ذلك بدت نظراته الحادة كما لو كانت ستحرق الطنف .

تأملت هيلين من سماع هذه القصة التي تذكرها بما أوصاها
به زوجها ، فقالت له :

— أبته ! ألا تقبل أن ترحل مع ابنتك بعيدا ، بعيدا جدا ؟
فسألها ببساطة : أين ؟

وقد بدى له أن فراق متدى كلبار ضرب من أشد ضروب
المحال . قبل جبهة أبنته وتمتم : أيتها الأبنة !

ثم ، بفكره المتساهل نحو الحياة وحنانه الأبوى ، وجد
ضالته التي يستبقى بها الارملة الشابة في پارى . فقال لها :

— إن صديقنا لونيجمار لن يروق له سفرك .

ولكنها أجابت أن مسيو لونيجمار لن يفكر بعد إلا في فتاة
صغيرة مرحة ، ثم ضمت يداها في تضرع وصاحت بصوت
محزون :

— ألهى ! ألهى ! أى شيء صارم هي الحياة .

أخذ يداها وعاد بصوته الغليظ .

— لمن تقولين يا بنية !

بعد أنلقى مسيو فيلير بمحفظته التعسة على المنضدة ابتدا
يدخن ، وهو يفكر في صامويل أوار الغائب .

ومن هذا اليوم ، ساء حال هيلين من الحزن والتفجع .
ونالها من غصص الكرب وتباريح العذاب مانالها . وقد أحست
بحاجتها إلى الاعتراف حتى يعتلى الحق الصراح .

على أثر التحقيق مع جرول . طلب المحقق معاينة منزل
المتهم وذهب مدير الشرطة يستأذن مادام هافيلان في البحث عن
بعض أوراق في غرفة جرول القديمة ، التي كان يقطنها أيام أن
كان يلحق بخدمتها . ثم طلب محادثتها .

رعدت فرائص هيلين لهذا الخبر . ورأت في غرفتها ، زوجها
مبلبل خاطر ، ولكن في هدوء وسرور . كان جالسا يتصفح
مجلة . ثم اختفى شبحه من أمامها .. إذا قد تبدل هلع هيلين
بأنكى الآلام .

لقد تخيلت القضاء . يقف منها موقف الاتهام . وجرول الخادم
يفضى اليهم بمعلومات عنها . ان كل مآثراته عن جرائم ماري
انطوانيت تعاودها ذكراها . وتتخيل سيف القضاء يحز عنقها .
ولقد ترى في سيئاتها أظنع آيات الرعب والوهل . تقلب مقتلها
في حجاجها كالمختبلة المسوسة من فرط ذعرها . في الساعة

العاشرة سمعت قرعاً على الباب . فتحت النافذة كما تقتل نفسها
أو تنقذها ، وجاء جورج الذى عاد كعادته من الكلية . قذف
بكتبه جلال على المنضدة . نظر إلى عمته . وقال لها :
أن عيناك كبيرتان اليوم .

فتح كتبه باستهتار ريثما يتم أعداد الغذاء ، لعمل واجب
يونانى . ثم جلس القرفصاء فى زاوية مقعد ، معتمداً بذقنه على
المنضدة . وجعل يبحث فى قاموسه . ورغماً عن استهتاره فقد
ترجم ترجمة حسنة . وقد أحدث أثناء الكتابة بقاء من الخبر
مسحها بعد ذلك بلسانه .

كانت تصغى بيلادة الى ما يحدثه الصبي من قرقرة بجذائه
على مقعده . أخذ يقلد صوت مدرسه فرفع صوته .
— لاحظوا ياسادة ، ما تحويه أشعار سفوكليس من النظم
الحسن . نحن لانعرف كيف كانوا يلقونها .. مسيو لا برونى ،
ستصرف لى ذياك الفعل عشر مرات .
ثم قال الطفل بصوته الجهورى :

— هلا عرفت يا عمتى أن أستاذى يلبس ياقات من الورق .
نحن نسميه بيتون . أتعرفين لماذا ؟ ذات يوم ، قال لئاء أيها

السادة ، لقد كان يتون وحش غريب الحلقة ذا بشاعة كريهة .
وهنا صاح أحدنا ويسمى لايروني «أنه مثلك» أنه شيرلايروني
قولى إذا يا عمتاه . أتعرفين أنك سيدة فائقة الجمال ؟

ثم اتجه بأفكاره إلى الترجمة اليونانية . فقد أخذ يقرأ الكلمة
اليونانية وترجمتها بالفرنسية بصوت عال يملأ الغرفة . يشبه
الطائر الغرد . وكان يقف أحيانا عن القراءة ليعد كرات اللعب
الرصاصية الصغيرة ..

— ان الرأس الالهية لجوكاست قد قضت ... يا للغباوة ..
لقد ذهبت .. الى مضاجع العرس .. هذا معناه نحو غرفة النوم .
لاحظوا .. ياسادة ، أية اصطلاحات قيمة !. وأية موازنة !...
مزقت شعرها ونادت الميت ، أترين يا عمتى أن لائيس فى الفرنسيه
هو الموعظة ، ولكن فى الاغريقية هو الرجل الطيب الذى
تزوجته جوكاست ، وذاك الزواج لم ينجح .. « مزقت شعرها ،
ونادت لائيس الميت »

خرجت هيلين من تلك الترجمة من الاغريقية إلى الفرنسيه
بقصه سامية لامرأة يائسة .

أما هو ، وقد تعب ، فإنه لقربه من النهاية ، أسرع :

— لقد رأينا المرأة المشنوقة ، وهنا ضغط بالقلم على الورقة
غفرقتها . وكشف عن لسان مغطى بالخبر . ثم أنشد :

— المشنوقة ! المشنوقة ! لقد انتهت !

قامت هيلين وصعدت إلى غرفتها هادئة . فبدت فيها صورة
واضحة للارادة .

التفت بوشاحها الأسود ونزلت من درج الخدم .

١٣

لما أن صارت فى الشارع . جهرت عيناها . فقد كان هذا الصباح رائقا ، وانتشرت الأنوار انتشارا غريبا . وقد أكسبت الأنوار الطبيعية جميع الأشياء أبهى الحلل وأجملها . هاته الأضواء سامت هيلين العذاب . وكانت لا تعى شيئا مما تراه . كانت تنظر بذهول إلى الأشياء - كأرقام العربات وأسماء المتاجر ، وبدت لها مقلقة ، تنهك أعصابها المريضة . كل ما رآته تخيلته قد اخترق نفسها بوحشية وجرحها . سارت بعزيمة ماضية . فلقد خطر لها شيء بدا حسنا ، فكرة تغلبت على ماعداها للتو واللحظة . سارت وهى لا تشعر بما ينالها من تعب . فقد تسلطت إرادتها الحديدية عليها . . ولاحظت أمامها فتاة تسير حاملة ولدا صغيرا وزجاجة من اللبن . ورأت هيلين القطرات البيضاء التى تسقط واحدة فأخرى إلى أحجار الأفريز . كل ما يشغلها هو هذا اللبن المراق . فكل قطرة مراقبة كانت تسومها أنكى العذاب . عند ما انتهت من الطريق ، بدا لها طريق آخر ، فترددت ثم اتجهت إلى اليمين وعادت سيرها . كان حى أرزاي معطرا برائحة الحدائق . لقد ذهبت . . فى شارع پال عند قنطرة رويال .

وُسِد الطريق أمامها بزمرة من العمال ، عمال الترام ، والعربات .
اتجهت إلى القنطرة . دون أن تنظر إلى الماء . وسارت إلى اليمين
حيث سارت بين مجاميع الصفصاف وممرات الحمامات . فدخلت
قارباً مملوئاً برائحة الماء الساخن والقطران . ثم طلبت من العاملة
أن تعد لها حماماً . وانتظرت ، وهي تعض قبضة مظلتها . وكانت
على أتم هدوء حينما دخلت حمامها وقالت أنها ستقرع الناقوس
إذا ما أرادت رداء الحمام . حينما أقفلت الباب الصغير عليها ، فتحت
النافذة بحركة عنيفة ، وأسدلت الستائر . وتنفست بقوة . وكانت
تأمل أمامها السين يحرك أمواجه الصغيرة الهادئة . . . بعض
الغسلات في قاربهن عند الشاطئ الآخر ، وكان طنين التاموس
يرن في الهواء صاعداً من فتحات حمامات الرجال المزخرفة . . .

رأت هذه المناظر بغير اكتراث وبدت كأنها سعيدة .
وكان منكبيها ملتفان بدثار من الكازمير الأسود ، وأرسل
قناعها على قبعتها وحول رأسها كخيال الموتى وبدت أجمل منها .
في أى وقت آخر . وقويت عزميتها . وثارت موجة خفيفة
ما لبثت أن ازدادت . وقد كانت القوارب تخطر بخفة ، ومن
أمامها قارب متجه إلى بون دى جور ، فسمعت أصوات راكبيه

يتحدثون عنها ، وهما شابان من العوام ، يدفعان بالقارب إلى القنطرة ، ينظران إليها متأملين ملاحظتها . وقد لحظت منهما ذلك وسمعت أصغر الاثنين . ذا الديباجة المشربة حمرة ، يقول لزميله — ما أجل هذه المرأة ، وما أقفنها !!

ولكن سرعان ما مرّ القارب واختفى تحت قنطرة رويال . هل يوجب هذا الأزدراء أم السرور ؟ تحركت زوايا شفاتها وبدأت ابتسامة . . كانت وديعة ، وهياتها المترددة عذبة مطمئنة . رفعت ذراعيها الجميلين بدلال طالما أشقى رجال ومرت بأصابعها على جبهتها . ثم ، وقد اكتفت بما رآته أغلقت النافذة حينما كان الوقت ظهراً . في الساعة الثانية لم تكن قد دقت الجرس بعد . ومرت عشر دقائق أخرى فدهشت الخادم من أن أحداً لم ينادها وفتحت الباب وسألت عما إذا كانت السيدة ليست في حاجة إلى شيء . ما من أحد في الداخل ولكن أمامها شيء أسود معلق بين النافذة والمرآة . هرعت الفتاة تصيح في طلب النجدة .

كانت هيلين هاثيلان معلقة برباط الرقبة - رباط جور- التليذ إلى حيث تعلق المعاطف . وقد لفت منكبيها بذلك الوشا . النبي أهدها لها رينيه في ميدون . أما ركبناها فيها مشدودتا

بصلابة . ومس طرف أعقابها الأرض . وغطت وجهها
بنقاب رفعوه فكشف عن وجه منتفخ ، وتدلّى لسانها من انفم
وبدا أسود اللون منتفخا .. لقد انتحرت هيلين هايلان لتخلص
من هذه الحياة التى تسومها العذاب . حياة مريرة لا طعم لها .
ولقد كانت تتعذب من ضميرها الذى يوخزها ويؤنبها على مسلكها ،
وكانت تتخيل نفسها مجرمة آثمة . ملطخة اليد بدماء زوجها . ثم أنها
من البداية لم تكن مرتاحة إلى هذا الزواج . لأنها تحب ، وتحب من ؟
تحب رينيه لو نجهار الشاب الجاف الذى لم يقل لها يوما أنه يحبها
ولم يبادلها عواطفها . أنها تعسة ، فى كل أطوار حياتها . لم تنهأ
بحبها ولا بزواجها .. وهامى تنتحر ، فتخلص من هذه الحياة الثقيلة .
واختفى هذا الوجه النضير ، الذى عبس له الدهر .
وارتاحت تلك النفس المعذبة فلن تقلقها بعد ذكرى زوجها ،
ولن تضطرب لرؤية الحبيب . فقد آن لها أن تفارق الشجون
والآلام وأن تودع العالم هادئة مطمئنة .

وقد صرح ضابط الشرطة الذى نودى به :
لقد رأيت كثيرا سيدات منتحرات . ولكن هذه هى المرة
الأولى التى أرى فيها سيدة مشنوقة .

١٤

سمع لو نجمار نبأ تلك الفجيعة التي تفزع لها الصخور والرزية
التي لا تعوض وكم هلع لها قلبه وكيف لا يهلع ، وتلك امرأة
أحبها ورأى فيها مثله الأعلى ثم هو يفترقها اليوم فلا يراها ولما
يمض على اجتماعهما الأخير وقت كثير أحبها ولكن صدمه
المال فخطم قلبه وتركه كسيراً بائساً وهو لم يزل في المرحلة الأولى
من حبه ، ثم زال هذا الشبح الذي نغص عليه حياته ، وترملت
هيلين ، فكان يتعزى عما سلف برويتها والتحدث إليها . ولكنها
كانت تتألم ، فيزيد مظهرها الحزين من شجونه وآلامه . وأخيراً
هاهى تفارقه دون أن تترك له كلمة واحدة . فيا للبصية ، لقد
اندرأ القضاء دفعة واحدة على هذا الشاب ، وحكمت الطبيعة
عليه بأن يعيش حزينا بائساً كسير القلب ، بعد أن حكمت على
حييته ومالكة فؤاده بأن تحيا حياة بائسة مريرة ، حكمت عليها
باليأس القاتل ، أفقدتها قلبها وأملها وسعادتها حتى فضلت
الانتحار ، فذهبت في ريعان الشباب وخلفت بائساً محزوناً ،
يقذف جمرات الإلحاح المستعرة ويقلب مقلته في حجاجه

كالخبتل المسوس . ليس له من الأحساس والشعور لا قليل ولا كثير . لم يظهر من الخلال الحسنة غير إقدامه وجده في التطيب فقد كان يعمل في تطيب داء الكلب . وزاد نفوره وشجاره مع أترابه وعلى صدره بمراحل الحقد نحو النساء . فترك ثياب الظرف والملاطفة وأقام وحيدا . وبلغ من جزعه وفروغ صبره أنه لم يمكنه أن يتناول غذاء واحدا في الملبن دون أن يتشاجر مع الخادم والعامل والفتاة الحاسبة . وفي مناقشة حادة مع رئيس المستشفى ، استقال من خدمة الجراحة الحربية . وفي يوم صحو جاء إلى والده ، في أردن بغير كتب ولا أردية . وأما بذقن ثلاثة أسابيع وهياة العبوس . كان مفتش الطرقات السابق ، شيخ صغير يعمل في قطع أشجاره ويعبئ أنبذته في زجاجات . يعهد منزله ، يشق الأخشاب ، يذهب ويؤوب وقد أولى أشياء الحياة اهتمامه العظيم . هز منكبيه حينما رأى ابنه يتمدد في الحديقة طوال يومه . وقد وضع غليونه في فمه وقبعته تغطي رأسه حتى الأنف . قال له يوما بعد الغذاء ، أنه يحس وربما في ذراعه . ولا يؤلمه هذا ولكنه يشعر بالتضخم ثم سأله عما يجب ان يفعله . فأجاب رينيه

— لا شيء —

ثم أدار عقبيه الى الرجل الطيب

كثيرا ما خاطر الشيخ ، ذى المعزقة فى يده ، قريبا من
كومة التبن حيث يتمرغ ابنه .. قال له مرة :

— إذا كنت مريضا ، فلتذهب لتنام فى مضجعتك . وإذا

كنت تريد ان تغامر فى الحياة مرة ثانية فأنتى مستعد ان اساعدك
على مسلكك .

اعتاد رينيه ان يخرج بعد الغذاء . فيذهب قريبا الى حيث
واد عميق ضيق ، وشواطىء نهر صغير . كل شيء يبدو غنا تافها .
كان الله خاليا من الجمال والظرف . واقام بضعة اسابيع على
هذا الحال .

ذات يوم بينما كان يتشأب بيلادة على الشاطئ ، رأى
أطفالا يقذفون الحصى فى الماء . بحركات رشيقة خرقاء . وقد
كانت هاته المخلوقات الصغيرة ذات شعور صفراء . ووجوه قد
أشربت حمرة قانية وهى تضحك وتمرح ، يجعلون من الماء موجات
خفيفة . يضحكون وسط تلك المناظر الخشنة . طرأت فجأة على
لونجمار فكرة . ناداهم ، ولكنهم هربوا فتعلقوا بالأحجار الناتئة

فسقطوا إلى القاع الموحد . وغطسوا ولم يتقدموا . علق أحدهم بشق في صخرة فوق النهر ظلها مخفية . وكم ارتعب حينما أتى إليه لونيجمار وجذبه من جحره كالحية . لم تكن هياته شريرة حتى أن الولد لم يخافه . قال له :

— هل تريد أن تصنى إلى ، أيها الوحش الصغير ، إذا كنت تريد أن تربح بعض النقود فاحمل إلى بعض الضفادع أنك تعرف كيف تصيدها ، وأحضرهم إلى مسكني عند الأب لونيجمار .

وإذا ما استحوذ على ضفادع ، قبع في غرفته التي امتلأت برائحة الأدوية والتبغ . وكان والده يراقب في سرور الضفادع المعلقة ، واضمر لولده أثناء عمله احتراماً : وعمل جهده على عدم إقلاقه حتى ليسير على أطراف أصابعه . وقد سأله يوماً : ألا يمكن أن أساعدك في تحضير ضفادعك ؟ أليست في حاجة مثلاً لأن أنحت لك القوالب ؟ يمكن أن أقوم بأعمال الطلاب . وصب الرمل الرفيع .

— تلصق رمالاً ناعمة فوق الأرض ! ولم هذا ؟

فشرح الأب ما كان يظنه وهو أن ابنه يحشى الضفادع

يُجعل منها مجموعات ندية : قال :

— لقد رأيت في پاری ، في حوانيت الطيريين ، ضفادع
محضرة باتقان . وقد عملوا مناظر لعرا كها وجعلوا في يد كل
حساما صغيرا . ومناظر أخرى وهن يلعبن ويقفزون في الماء
الموضوع في زجاجات . تلك مهارة فائقة . لقد ظننت يا ولدي
أنك تعمل في شيء من ذلك .

وكم شعر بالحنية حينما علم أن ابنه يعمل بعض تجارب . كان
هذا في نظره أعمالا خاصة بالطلبة . ومنذ ذلك طفح وجهه
بالآسى . وقد تناول ضفادع معلقة على النافذة وهو يحرك رأسه أسفا .
ذات صباح أخبره ابنه انه راحل . فكان شجار بين الاثنين
ومناقشات عنيفة انتهت بأن افترقا غاضبين

ولكن سريعا ما بكى الوالد الشيخ عندما عاد إلى منزله . أما
رينيه فإنه ما كاد يستلقى على المقعد في الدرجة الثالثة حتى اخذ
يحفف دمه .

في محطة ريم رأى شاين يلوح أنهما من موظفي المتاجر
دخلا عربته كان أولهما يقرأ في ألبى جورنال . ويسمع ترابا
الأخبار الهامة .

— الازمة الوزاريه مستمرة . . . حدث انفجار مقلق فى
حى كيو . . . أنفذ حكم الأعدام فى المدعو جرول (چوست -
ديزيرى) الساعة السادسة من صباح اليوم . فى ميدان مارشى
بجرائقى . . .

سأله الآخر :

— ماذا فعل ؟

— لقد قتل شيخا ، واتهم بدس السم لأحد الانكليز
الأثرياء ولكن هذه الجريمة الثانية لم تثبت للقضاء . ألا تذكر
قضية جرول ؟ .
— كلا .

وبعد هنيهة من السكون . قال :

— هل هناك إيضاحات ؟

قرأ بصوت منخفض ! « منذ الرابعة صباحا : الآلة المهلكة . »

لم يصغ لونهجما للباقي . طوى القارىء صحيفته وقال :

— حتى الدقيقة الاخيرة أحتج بأنه لم يضرب المجنى عليه

قصد قتله . هذا سيان . أنه شرير شهير . . . والآن فسا كل
قطعة من الحلوى . . وأنت ؟ . . .

أقام لونيهار في پاری خاملا . وقد بقيت له بضع مئات من
الفرنكات من خدمته في كوشين شين . فأضاعوا للتو . وكان
يستيقظ في الظهر ويذهب للجلوس على شاطئه لكسمرج بين
أزهار معدمة ، فقد انتهى فصل الربيع ، وكان يلقي برأسه بين
يديه وقتا طويلا حتى أن أصابعه قد تركت اثرا في وجنتيه .
وقد قضى أيام الشتاء في متدى حيث يقيم منعزلا لا يقرأ
الاخبار ولا يلعب البليارد . رأى هناك ، في الخريف وجها
يعرفه هو نويلهاك ولد قروى غليظ . كان يساعد والده في
الزراعة في أوفرن . ثم اشترى عينا مهمة في بلده حيث أخذ
يرغب المستحمين في مياهها . وقد أقبل على الاربعين ولا يزال
يافعا . قدم زجاجاته إلى لونيهار وأخذ يشرح له مشروعه .

عل بعد خمسين كيلومترا من كلير مونت ، على شاطئ
بحيرة ، وعلى قاعدة جبل من البازالت تقع المصححة . وكان
يسكن البلدة خمسة عشر من الماعز .

وقد ورث نويلهاك عن والده بعض المساكن الصغيرة التي
صارت فيما بعد أكواخا للأجانب . وأمام هذا البناء يقع فندق
قيصر الذي يتسع لثلاثين إلى أربعين سائحا . وهم يأملون في عمل

ملهى فى المستقبل وقد ابتداء برأس مال صغير . ولكن من يعرف فى المستقبل ؟ واخيرا طلب إلى لونجمار أن يرافقه ليكون طبيب المصحة . وكان لونجمار شهيرا فى عالم الطب . وماضيه فى الخدمة العسكرية الطبية مجيد وقد عهد فيه أصدقاؤه أستاذا عظيما . أجاب !

— أن حماماتك محتبئة . لا يأتى إليها البتة إلا بعض الأوربيين المصابين بداء الخنازير . فأذا ذهبت إلى هناك فسأقيم الشتاء كالصيف .

وقد قبل دون معارضة المرتب الضئيل الذى عينه له نويلهاك . فى الغداة ذهب ليتجول فى پارى ليشتري قليلا من الثياب والآلات والكتب ، نحو الخامسة مساء . لما أن أنهى من شارع شامب - أليس ، رأى نفسه امام مثل جويجنول . وقد عقد جبل طويل إلى جذوع الأشجار كما تقفل الحلقة التى حجزت لجمهور النظارة . وفى الخلف جمهور الأطفال . لمح وسط النظارة شيئا فى ردنحوت باهت اللون ، يصوب نظره الحائر بين السماء والأرض . هذا هو المسيو فيليز دى سيساك الذى أثار رؤياه ذكريات لونجمار .

صاحبه مسيو فيليير وهو يبحث عن عبارة يقولها ولكنه
عجز عن ذلك . قال لونيهار بجنان وعطف :

— هلم ، سأدلك على عمل .

— هذا حسن . ليس عندى أعمال هذا المساء .

قال أنه يقطن شارع تروتو :

وقد جلسوا فى الظلام ، فى إحدى حانات مونمارتر .
وكانوا يتبادلون النظرات وهم مشدوهين لا يعرفون أهو يوم
أم مائة سنة لم يروا أنفسهم خلاله .

لم يتحدثوا عنها . ولكن كلا منهم يتخيلها قرية منه . قال
لونيهار وهو يكسر البندق أنه سيسافر
— سوف أدلك على عمل .

صدرت عينا الشيخ وصاح :

— أترك بارى ! ليس هذا بالمكان ! والأعمال ! لاهياة

إلا فى بارى .

فلم يستطع لونيهار ذى الأشجان والاحزان . أن يمنع
نفسه من الابتسام . هلم إذا ستصير هناك مفتشا ، مراقبا أو مديرا

رنت هاته العناوين فى رأس الشيخ الذى خلت يده من

العمل فتواعدا على الغداة . وقد حدث لونيهار نفسه :
— أنه أقوى منى . حتى ليبدو كأنه صهرى .

لم يكن فصل الحمامات سيئا بالنسبة لنويلهاك . فقد جاء
بعض الروسين وعائلة من ليونى ليأخذوا المياه من مصحته .
أقام مسيو فيلير قريبا من الينبوع وتذوق الماء بقبالية . ولم
يعينه نويلهاك فى وظيفته حقا . وقد كان يدفع له من مرتب
لونيهار . لقد قال له الطبيب :

— دعه يظن أنك تعطيه مرتبا . ولا تعلمه أن هذه هى
نقودى التى يقبضها أما أنا فسادبر أمرى .
أخذ يمرض بعض الروسين ودعى للتطبيب فى الجبل
المجاور .

رحل السياح كرحيل السنونو الواحد تلو الآخر . جاء الشتاء
وغطى الوادى بالسحب وقد انتشر الضباب حتى لتتراءى لك
اشجار الشربين الهائلة كالحىالات . وقفل الأفق يحمر من الظلام
وفى المصححة كنت ترى الصور التاريخية الحمراء والصفراء ،
وقد تقشرت . وفى فندق قيصر ، فى الواجهة ، كان يرى مسيو

فيلير يلعب الدومينو مع صاحب الفندق ، في حين جلس لونيهار
يدخن غليونه ، وقد حك قبضته اليسرى بأبهامه الأيمن ثم حدث
نفسه بصوت منخفض الحمى الشديدة - والألم الحاد في السوداء ،
والسعال ثم الضيق الذي يعاينه ، والألم الكبير في منكبه الأيمن.
لا ينقص شيء . أى حملة جميلة تلك التى انصبت على .
وللمرة الأولى منذ عام وأربعة شهور وستة أيام ، علت
ء حمة الانتسامة

استمراره

وقعت بعض غلطات مطبعية ولغوية نتركها لفطنة القارىء
وقد ذكر فى الصحيفة الأولى أن حقوق الطبع محفوظة للمؤلف
وهذا خطأ

